علماء صنعتهم نساء

تمهيد:

إن العلم ومحبته شجرة تُزرع في القلب فتثمر كل خلق جميل وعمل صالح وثناء ووصف محمود، ولقد زرعت المرأة المسلمة أماً وأختاً وزوجة عبر حياة الأمة الإسلامية تلك المحبة ـ محبة العلم ـ في نفوس فلذات الأكباد وشباب الإسلام فصنعن بذلك العمل وبتلك المحبة علماء خلّد التاريخ أسماءهم وملأ علمهم بقاع الأرض نوراً وخيراً. وقد وقفت في أثناء بحثي على أئمة في العلم في عصور مختلفة وحتى من عصرنا، كان للمرأة المسلمة الدور الأول والأثر الفعال في صنعهم. ولقد وجدت أن سيرة هؤلاء العلماء جديرة بجزء كبير من كتابي لكي نشحذ بهذه السيرة همة الشباب للسير في ركاب العلماء الربانيين، وندفعهم لحب العلم وطلبه، ولكي ننظر سوياً في مسيرة هؤلاء العلماء ونتأمل كيف لعبت المرأة المسلمة دوراً في حياة كل عالم.

وسوف أبدأ هؤلاء العلماء بسيدنا أبي هريرة وهو أحد صحابة رسول الله ﷺ وكنت قد فكرت في البعد عن جيل

الصحابة، لأنه جيل كان له خير معلم عرفته البشرية، وكان وجود الرسول الله ﷺ بصحبتهم هو الأثر الأول في طلبهم للعلم، ولكني عندما رأيت سيرة سيدنا أبي هريرة وكيف أنه نشأ يتيماً وكفلته أمة وكيف أن محبته ومحبة أمة قد دعا بها النبي ﷺ(*) وأيضاً ـ وهذا هو السبب الأساس لإيراد سيدنا أبي هريرة بل والتطويل في عرض سيرته والثناء عليه ـ لما رأيت من يتجرأون على النيل من هذا الصحابي الجليل [قرّرت] أن أساهم في الدفاع عن هذا الصحابي الجليل الذي تجرأ عليه السفهاء في حين شهد تفضيله أولو الفضل وعلى رأسهم سيدنا محمد ﷺ. ولهذا كله أوردت سيدنا أبي هريرة في مقدمة هؤلاء العلماء الذين صنعتهم نساء، وسوف يكون تتابع الشخصيات بعد ذلك دون مراعاة للترتيب التاريخي أو تفضيل لعَلَم دون آخر فكل هؤلاء العلماء الذين سوف نورد سيرتهم بإذن الله كانوا قمماً شامخة ومصابيح مضيئة كلٌ في عصره وبلده. فكل عالم من هؤلاء العلماء سخرهم الله لنصرة الإسلام وحمل ميراث الأنبياء وتبليغه للبشر، كما سخّر لهؤلاء العلماء نساء فاضلات قامت على تربيتهم وتنشئتهم النشأة الإسلامية العلمية السليمة.

وسوف أورد بإذن الله نماذج لعلماء معاصرين قامت المرأة المسلمة بدور رائد في صناعتهم، وذلك حتى لا ينزغ في

(*) سيأتي ذلك في ترجمته.

النفس نزغ الشيطان بأن هؤلاء العلماء كانوا في القرون الفاضلة، بل لقد وجدت بفضل الله من عالمنا المعاصر علماء أعلام كان للمرأة المسلمة الأثر الفعال في طلبهم للعلم.

فهيا أختي المسلمة إلى هؤلاء العلماء من الصحابة والتابعين والمعاصرين لنتعرف سوياً على العلماء الذين صنعتهم نساء.

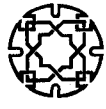

١ ـ سيدنا أبو هريرة(*)

هو راوية الإسلام وصاحب الرسول عليه الصلاة والسلام. هو عبد الرحمٰن بن صخر من ولد ثعلبة بن سليم الدوسي، كان اسمه في الجاهلية عبد شمس ـ وقيل غير ذلك ـ فسماه رسول الله ﷺ عبد الرحمٰن وأمه ميمونة بنت صخر وقيل أميمة(١).

وقد أسلم مع من أسلم من قبيلة دوس على يد سيدنا الطفيل بن عمرو الدوسي وهاجر إلى المدينة في ليالي فتح خيبر(٢).

وقد صحب سيدنا أبو هريرة رسول الله ﷺ أربع سنوات

(*) طبقات ابن سعد (٢/ ٥٢)، تذكرة الحفاظ (١/ ٣١) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٤١٨) وتهذيب التهذيب (١٢/ ٢٦٢) والبداية والنهاية (٨/ ١٠٣) حلية الأولياء (١/ ٣٧٧)، تاريخ الإسلام (٢/ ٣٣٤) الاستيعاب (٤/ ١٧٦٨) وتاريخ دمشق (٦٧/ ٢٩٥).

(١) جمهرة أنساب العرب (ص٣٥٨، ص٣٦٠)، طبقات ابن سعد (٢/ ٥٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٢٥، ٤٢٦) البداية والنهاية (٨/ ١٠٤).

بعد غزوة خيبر وكان قد زاد على الثلاثين سنة، أقام معه حتى توفىﷺ يدور معه في بيوت نسائه يخدمه ويصلي خلفه ويحج ويغزو معه لا ينقطع عن مجالسه بل كان المسجد مقامه والرسول اللهﷺ إمامه، فعرف كثيراً من سنة رسول اللهﷺ وشاهد دقائق السنة ووعى تطبيق الشريعة، فأرسله رسول الله عليه الصلاة والسلام مع العلاء الحضرمي إلى البحرين فكان مؤذناً وإماماً، عرف رسول اللهﷺ حرصه على الحديث وحبه للعلم فكان لا يتأخر في إجابته عما يسأل ويدعو له[١].

هكذا كان سيدنا محمدﷺ وخير معلم عرفته البشرية، هو الذي يمد سيدنا أبا هريرة بالعلم والنور، وكان سيدنا أبو هريرة شديد الحب له وقد كان يُسمع كثيراً وهو يقول: «الحمد لله الذي هدى أبا هريرة للإسلام الحمد لله الذي علَّم أبا هريرة القرآن الحمد لله الذي مَنَّ على أبي هريرة بمحمد عليه الصلاة والسلام»[٢] وعلى قلة المدة التي قضاها سيدنا أبو هريرة في صحبة الرسولﷺ إلا أنه كان أكثر الصحابة رواية عن رسول اللهﷺ كما يقول هو عن نفسه: «ما من أصحاب النبيﷺ أحد أكثر حديثاً عنه مني إلا ما كان من عبدالله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب»[٣].

(١) حلية الأولياء (١/ ٣٧٩) تاريخ الإسلام (٢/ ٣٣٤) بتصرف.
(٢) تاريخ ابن عساكر (٦٧/ ٣٦٤).
(٣) البخاري (١١٣) ك العلم ومسند أحمد (٢/ ٢٤٨).

وكان سيدنا أبو هريرة من أعلام الفقراء والمساكين، صبر على الفقر الشديد حتى أنه كان يلصق بطنه بالحصى من الجوع، وكان رغم فقره الشديد شديد العفاف حتى فتح الله عليه وأغناه من فضله، وكان فياضاً في غناه مبسوط الكف جواداً يحب الخير ويكرم الضيوف، لا يبخل بما في يديه وإن كان قليلاً، فلم يحمله فقره على الشح كما لم يحمله غناه بعد ذلك على البخل، ففي عسره كله كان ضيف الإسلام وضيف الرسول عليه الصلاة والسلام وصحبه، حتى إذا ما يسر الله عليه لم يجعله غناه قاسي القلب متحجر الفؤاد بل كان علماً من أعلام الجود والكرم وهو غني، كما كان علماً من أعلام الفقراء.

قال الطفاوي: «نزلت على أبي هريرة بالمدينة ستة أشهر فلم أر من أصحاب رسول الله ﷺ أشد تشميراً ولا أقوم على ضيف من أبي هريرة»[1].

وكان لسيدنا أبي هريرة نصيباً من الجهاد في سبيل الله فقد شهد مع رسول الله ﷺ كل غزواته بعد فتح خيبر، كما شارك في حروب الردة بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام والدليل ما جاء عن أبي هريرة: «لما كانت الردة قال عمر لأبي بكر: تقاتلهم وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول كذا وكذا، قال فقال أبو بكر: والله لا أفرق بين الصلاة والزكاة ولأقاتلن من

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٢٨)، تاريخ الإسلام (٢/ ٣٣٦).

فرّق بينهما، قال: [والقائل سيدنا أبو هريرة] فقاتلنا معه فرأينا ذلك رشداً»[١]. والشاهد قول سيدنا أبو هريرة «فقاتلنا معه» وهو دليل على مشاركته في حروب الردة. ويذكر لنا ابن عساكر أن أبا هريرة شهد موقعة اليرموك[٢]. وهكذا كان سيدنا أبو هريرة علماً في الجهاد كما كان علماً في العلم، بل كان وعاء من أوعية العلم يفيض بالعلم والنور في كل مكان، فقد كان يحدث عن رسول الله ﷺ في المدينة المنورة وفي مكة المكرمة، كما حدَّث في دمشق والبحرين وكان يُحدِّث حيثما حلَّ ويفتي الناس بما سمع من الرسول الكريم ﷺ. ومن يتتبع حديثه يرى أنه قد جعل بيته معهداً للمسلمين يحدثهم ويكرمهم ويُدخل السرور عليهم بما أنعم الله عليه من حسن المعشر وكثرة العلم والخير، كما كان يستقبل طُلاب العلم في أرضه بالعقيق[٣].

وهكذا كان سيدنا أبو هريرة مُحباً للعلم ومحباً لحديث رسول الله ﷺ يعمل على نشره ليل نهار، ويشهد على ذلك صحابة رسول الله ﷺ الذين كانوا يحيلون السائل عليه لما

(١) النسائي الكبرى (٢/ ٢٨٠) رقم (٣٤٣٣) وفي الصغرى (٧/ ٧٧) ومسند أحمد (١/ ١١)، (٢/ ٤٢٣).
(٢) تاريخ دمشق (٦٧/ ٢٩٦).
(٣) ذخائر المواريث (٤/ ٢٦) حديث (٨٧٢١). كما ورد في سنن أبي داود (٢٤٤٠) قال عكرمة: كنا عند أبي هريرة في بيته وذكر الحديث.

عرفوا من علمه واتقانه وملازمته للنبيﷺ، فعن معاوية بن أبي عباس الأنصاري أنه كان جالساً مع ابن الزبير فجاء محمد بن إياس فسأل عن رجل طلَّق ثلاثاً قبل الدخول فبعثه إلى أبي هريرة وابن عباس وكانا عند عائشة فذهب فسألهما فقال ابن عباس لأبي هريرة أفته يا أبا هريرة قد جاءتك مُعضلة فقال: «الواحدة تبينها والثلاث تحرمها»(١).

وجاء رجل إلى زيد بن ثابت فسأله عن شيء فقال له زيد: «عليك أبا هريرة فإني بينما أنا وأبو هريرة وفلان في المسجد ذات يوم ندعو الله تعالى ونذكره إذ خرج علينا النبيﷺ حتى جلس إلينا فسكتنا فقال: عودوا إلى الذي كنتم فيه قال زيد: فدعوت أنا وصاحبي قبل أبي هريرة وجعل رسول اللهﷺ يؤمن [يقول آمين] على دعائنا، ثم دعا أبو هريرة فقال: اللهم إني أسألك ما سألك صاحباي وأسألك علماً لا يُنسى، فقالﷺ: «آمين» فقلنا: يا رسول الله ونحن نسأل الله علماً لا يُنسى فقال: «**سبقكم بها الغلام الدوسي**»(٢).

وكما كان سيدنا أبو هريرة محباً لطلب العلم كان محباً لتعليم ذلك العلم بالحكمة والموعظة الحسنة، ويضفى إلى ذلك شيئاً من مرحه فتقبله النفوس وتطمئن له القلوب. من هذا ما رُوي عن أبي

(١) انظري موطأ مالك (٢/ ٥٧١) والأم للشافعي (٥/ ١٣٩) والسنن البيهقي (٧/ ٣٥٥) وانظري سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٣٧).

(٢) تهذيب التهذيب (١٢/ ٢٦٦)، سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٣٢) وحلية الأولياء (١/ ٣٨١) والبداية والنهاية (٨/ ١١١).

هريرة أنه مَرَّ ذات يوم بسوق المدينة ـ وقد هاله انشغال الناس في الدنيا ـ فوقف عليها فقال: يا أهل المدينة ما أعجزكم. قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة؟ قال: ذاك ميراث رسول الله ﷺ يقسم وأنتم ههنا ألا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه؟ قالوا: وأين هو؟ قال: في المسجد، فخرجوا سراعاً ووقف أبو هريرة لهم حتى رجعوا فقال لهم: ما لكم؟ قالوا: يا أبا هريرة فقد أتينا المسجد فدخلنا فلم نر فيه شيئاً يقسم، فقال لهم أبو هريرة: وما رأيتم في المسجد أحداً؟ قالوا: بلى رأينا قوماً يصلون وقوماً يقرؤون القرآن وقوماً يتذاكرون الحلال والحرام، فقال لهم أبو هريرة: ويحكم فذاك ميراث محمد ﷺ[1].

ولقد شهد لسيدنا أبو هريرة بالعلم والفضل الكثير من أولو الفضل ويكفيه شهادة رسول الله ﷺ: عن أبي هريرة سألت رسول الله ﷺ: ماذا ردَّ إليك ربك من الشفاعة؟ فقال: «**والذي نفس محمد بيده لقد ظننت أنك أول من يسألني عن ذلك من أمتي لما رأيت من حرصك على العلم**»[2].

وفي رواية قال: «**لقد ظننت لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث**»[3].

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٤٢٩) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٢٤) إسناده حسن.

(٢) مسند أحمد (٢/ ٣٠٧) وصححه ابن حبان (٦٤٦٦) والحاكم (١/ ١٤١).

(٣) رواه البخاري (٩٩) ك العلم.

فهنيئاً لك يا أبا هريرة هذه الشهادة النبوية التي يضع بها المصطفى على صدرك وسام الطالب للحديث والحريص عليه، فأي توثيق خير من شهادة المصطفى، وأي درجة أعلى من درجة من شهد له النبيﷺ بالحرص على طلب العلم والحديث.

ولقد كان صحابة رسول اللهﷺ من بعده يعرفون لسيدنا أبي هريرة فضله وعلمه، فلقد رأينا كيف أحال إليه ابن عباس حبر الأمة وسيدنا زيد بن ثابت وهما من أعلم علماء الأمة، وهذا يدل على فضله وعلمه. كما كان عمر بن الخطابرضي الله عنه قد نهى أبا هريرة من الإكثار عن رسول اللهﷺ كما نهى غيره لأن سياسة عمر وبعض الصحابة الإقلال من رواية الحديث لأن في الإكثار مظنة الخطأ وخوفاً من أن يُشغل الناس بالحديث عن القرآن، ومع هذا فقد سمح عمررضي الله عنه لأبي هريرة بالتحديث بعد أن عرف ورعه وتقواه.

روى الذهبي عن أبي هريرة قال: «بلغ عمر حديثي فأرسل إليَّ فقال: كنت معنا يوم كنا مع رسول اللهﷺ في بيت فلان؟ قلت: نعم وقد علمت لأي شيء سألتني، قال: ولِمَ سألتك؟ قلت: إن رسول اللهﷺ قال: «**يومئذ من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**»»[١] قال: أما الآن فاذهب فحدث»[٢].

(١) الحديث رواه البخاري عن أبي هريرة (١١٠) ك العلم.
(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٣٤).

وفي رواية: «حدِّث الآن عن النبي ﷺ ما شئت»[١].

فهذا السماح من سيدنا عمر توثيقاً منه لسيدنا أبي هريرة.

وقال عبد الله بن عمر: «يا أبا هريرة كنت ألزمنا لرسول الله ﷺ وأعلمنا بحديثه»[٢].

وقيل لابن عمر: «هل تنكر مما يحدث به أبو هريرة شيئاً؟ فقال: لا ولكنه اجترأ وجَبُنَّا»[٣].

وقال أبي بن كعب: «كان أبو هريرة جريئاً على النبي ﷺ يسأله عن أشياء لا نسأله عنها»[٤].

قال كعب الأحبار: «ما رأيت أحداً لم يقرأ التوراة أعلم بما فيها من أبي هريرة»[٥].

وقال أبو صالح السمان: «كان أبو هريرة من أحفظ أصحاب محمد ﷺ»[٦].

وقال الإمام الشافعي: «أبو هريرة أحفظ من روى الحديث في دهره»[٧].

---

(١) تاريخ دمشق (٦٧/ ٣٤٥).
(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٣٥)، طبقات ابن سعد (٢/ ١١٨).
(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٣٧)، تاريخ دمشق (٦٧/ ٣٤٩).
(٤) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٥١).
(٥) الإصابة (٧/ ٢٠٥).
(٦) تذكرة الحفاظ (٢/ ٣٤)، تاريخ دمشق (٦٧/ ٣٣٩).
(٧) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٣٢).

وقال الإمام البخاري: «روى عنه ثمانمائة من أهل العلم وكان أحفظ من روى الحديث في عصره»[١].

وقال ابن عبد البر: «كان من أحفظ أصحاب رسول الله ﷺ وكان يحضر ما لا يحضر سائر المهاجرين والأنصار لاشتغال المهاجرين بالتجارة والأنصار بحوائجهم»[٢].

وقال ابن الأثير: «أبو هريرة الدوسي صاحب رسول الله ﷺ وأكثرهم حديثاً عنه»[٣].

وقال عنه الحافظ الذهبي: «الإمام الفقيه المجتهد الحافظ صاحب رسول الله ﷺ أبو هريرة الدوسي اليماني سيد الحفاظ الأثبات»[٤]. وقال في موضع آخر: «أبو هريرة إليه المنتهى في حفظ ما سمعه من الرسول عليه الصلاة والسلام وأدائه بحروفه»[٥].

ويقول عنه ابن كثير: «وقد كان أبو هريرة من الصدق والحفظ والديانة والعبادة والزهادة والعمل الصالح على جانب عظيم»[٦].

---

(١) تهذيب التهذيب (١٢/ ٢٦٥)، البداية والنهاية (٨/ ١٠٣).
(٢) الاستيعاب (٤/ ١٧٧١).
(٣) أسد الغابة (٥/ ٣١٥).
(٤) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤١٧).
(٥) المصدر السابق (٢/ ٤٤٥).
(٦) البداية والنهاية (٨/ ١١٠).

وقال أيضاً: «روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ الكثير الطيب وكان من حُفّاظ الصحابة»[١].

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني: «إن أبا هريرة كان أحفظ من كل من يروي الحديث في عصره ولم يأت عن أحد من الصحابة كلهم ما جاء عنه»[٢].

وقال يحيى بن أبي بكر العامري: «أبو هريرة كان عريف مساكين الصُّفة خلفاء الفقر والصبر، وكان شديد الحب لرسول الله ﷺ ملازماً له في جميع الأحوال، لا يشغله عنه دنيا ولا أهل ولا مال ولملازمته وخصوصيته الأخرى في الحفظ عن رسول الله ﷺ كان أكثر الصحابة رواية على الإطلاق وأحفظهم، وقال: «كان حافظاً متثبتاً ذكياً مفتياً صاحب صيام وقيام»[٣].

وقال المؤرخ ابن العماد الحنبلي: «كان كثير العبادة والذكر حسن الأخلاق ولي إمرة المدينة وكان حافظ الصحابة وأكثرهم رواية»[٤].

وهكذا شهد لسيدنا أبي هريرة رؤوس العلم عبر العصور المختلفة، وقد شهدوا له جميعاً بالعلم وكثرة الحديث وفضله

(١) البداية والنهاية (٨/ ١٠٣).
(٢) تهذيب التهذيب (١٢/ ٢٦٦).
(٣) الرياض المستطابة ص٧٠.
(٤) شذرات الذهب (١/ ٦٣).

وورعه وضبطه واتقانه فقد كانت مكانته رضي الله عنه لا تخفى على مسلم في مشارق الأرض ومغاربها، وما سقته من ثناء عليه فهو على سبيل الذكرى والرد على أهل هذا الزمان الذين نجد فيهم من يتجرأ على هذا الصحابي الجليل الذي كتب اسمه بمداد من نور في سجل العلماء المحدثين الذين ينشرون الخير أينما حلوا.

ومن أقوال سيدنا أبي هريرة الخالدة التي تحضّ على طلب العلم قوله رضي الله عنه: «باب من العلم نتعلمه أحب إلينا من ألف ركعة تطوعاً وباب نعلمه عملنا به أو لم نعمل به أحب إلينا من مائة ركعة تطوعاً»[١].

وقال أيضاً هو وسيدنا أبو ذر: سمعنا رسول الله ﷺ يقول: «**إذا جاء طالب العلم الموت وهو على هذه الحال مات وهو شهيد**»[٢].

وهكذا يحض العالم الرباني غيره على طلب العلم وحفظ السنة والعمل بها حتى ينال طالب العلم فضل الشهادة وأجرها بإذن الله، ولكن هذا العالم الرباني إلى من ينزع وما هي القوة الدافعة في حياته ـ غير صحبته للنبي ﷺ ـ إنها الأم المسلمة التي كان إسلامها بدعوة من المصطفى ﷺ[٣] فقد كان سيدنا

(١) تاريخ دمشق (٦٧/ ٣٧٠).
(٢) المصدر السابق.
(٣) روى ابن عساكر قصة إسلام أم أبي هريرة (٦٧/ ٣٢٥).

أبا هريرة يتيماً كما أخبر هو عن نفسه:

«نشأت يتيماً وهاجرت مسكيناً وكنت أجيراً لبسرة بنت غزوان بطعام بطني وعقبة(*) رجلي، فكنت أخدم إذا نزلوا وأحدو إذا ركبوا، فزوّجينها الله فالحمد لله الذي جعل الدين قواماً وجعل أبا هريرة إماماً»(١).

وهكذا نشأ هذا العالم الرباني يتيماً وكان شديد التعلق بأمه وكان ينزع إليها في كل شيء حتى أنه انتسب إليها، وورد ذلك حين دعاه عمر بن الخطاب ليوليه فأبى فقال: تكره العمل وقد طلب العمل من كان خيراً منك يوسف عليه السلام، فقال: يوسف نبي ابن نبي وأنا أبو هريرة بن أميمة(٢).

وهكذا تلعب الأم المسلمة دور المحرك والدافع لهذا العالم الرباني وهذا الصحابي الجليل الذي ملأ الدنيا نوراً وضياءاً ينشر حديث المصطفى ﷺ مما جعله هو وأمه أهلاً لأن يحبهم كل مؤمن ومؤمنة كما ورد ذلك في حديث إسلامها، فقد ذهب سيدنا أبو هريرة إلى رسول الله فرحاً بإسلام أمه وقال له: قد هدى الله أم أبي هريرة إلى الإسلام ثم قلت ـ أي أبي هريرة: «يا رسول الله ادع الله أن يحببني وأمي إلى

(*) العُقبة أي نوبة ركوبه.

(١) طبقات ابن سعد (٢/ ٥٣)، تذكرة الحفاظ (١/ ٣٢)، والبداية والنهاية (٨/ ١١٠) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٤٤٠).

(٢) تاريخ دمشق (٦٧/ ٣٧١)، سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٤١).

المؤمنين والمؤمنات وإلى كل مؤمن ومؤمنة» فقال: «**اللهم حبّب عُبيدك هذا وأمه إلى كل مؤمن ومؤمنة**». فليس يسمع بي مؤمن ولا مؤمنة إلا أحبني[١].

وكيف لا نحب من نقل لنا خير الكلام ـ بعد كلام الله ﷻ ـ عن خير البشر وكيف لا نحب تلك الأم التي صنعت بعزيمة ذلك العالم الرباني فاستحقت بذلك أن تخلد في سجل خاص بخير نساء في سجل «نساء صنعن علماء».

فقد أخرجت للمسلمين عالماً ربانياً نصر السنة ونقل نورها لنا عبر العصور فكان من رواة السنة وحفاظها وناصريها وكان من علماء الحق الذين لم يهتموا بزخارف الدنيا بقدر ما اهتموا بنصر السنة.

وصدق من قال في وصف علماء الحق: [الطويل]

ولا همُّهُم جَمْعُ الحُطامِ فَزَخْرفُوا
قصوراً ولا باهوا برفع بناها
ولا قصدهم ممن أبادوه بالقَنَا
وتطويقهم بالسيف بيض طَلَاها
سوى رفع أعلام الشريعةِ في الورى
ويَنفون عنها بدَوَاهَا

(١) طبقات ابن سعد (٢/ ٥٥)، تاريخ دمشق (٦٧/ ٣٢٥)، سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٢٨).

فما أحوجنا هذه الأيام إلى مثل ذلك العالم الذي ينصر سنة الرسول ﷺ ويدعوا الناس إليها لتنصر السنة ولا تشغلنا الدنيا الفانية عن طلب العلا.

فما أحوجنا في مثل هذه الأيام إلى العلماء الربانيين لينقذ سنة المصطفى ويحفظها لنا كما حفظها سيدنا أبو هريرة:

سينقذها مِنْ بَعْد ذلك ماجدٌ
إلى مطمح العليا يرُومُ ذُراها
هُمامٌ سيجلو عارها بجُسَامِه
وينشر جهراً ما طواه عِدَاها
فتًى قد جَنَى من كل فنٍ ثمارَهُ
وأَمَّ إلى هام العُلى فَعَلاَها
قريبٌ إلى أهل الشريعة والنقى
وبعد عمن يَرْتَضِي بسواها[1]

فاللهم ارزقنا من ينصر سنة حبيبك المصطفى واجعلنا من النساء اللاتي يصنعن أولئك العلماء الناصرين للسنة.

(١) الأبيات من البسيط.

٢ ـ القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق(*)

هو أبو محمد القاسم بن محمد بن خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر الصديق وهو عالم وقته في المدينة.

قال عنه الذهبي: الإمام ا ة الحافظ الحجة عالم وقته بالمدينة مع سالم وعكرمة أبو محمد أبو عبد الرحمن القرشي التيمي البكري المدني(١).

ولد في خلافة الإمام علي فروايته عن أبيه عن جده انقطاع على انقطاع، فكلٌ منهما لم يلحق أباه ورُبى القاسم في حجر عمته أم المؤمنين عائشة وتفقه منها وأكثر عنها وروى عن ابن مسعود وغيره من الصحابة(٢).

عن يحيى بن سعيد قال: «ما أدركنا أحداً بالمدينة نفضله على القاسم بن محمد»(٣).

(*) سير أعلام النبلاء (٥/ ٥٣)، طبقات ابن سعد (٥/ ١٨٨)، صفة الصفوة (٢/ ٦٣).

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ٥٣).

(٢) طبقات ابن سعد (٥/ ١٨٨) وسير أعلام النبلاء (٥/ ١٨٨).

وقال ابن سعد: «أمه أم ولد يُقال لها سودة وكان ثقة عالماً رفيعاً فقيهاً إماماً ورعاً كثير الحديث»[١].

وعن عبد الله بن الزبير قال: «ما رأيت أبا بكر ولد ولداً أشبه به من هذا الفتى»[٢].

وروى عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال: «ما رأيت أحداً أعلم بالسنّة من القاسم بن محمد وكان الرجل لا يعد رجلاً حتى يعرف السنة»[٣].

وقال سفيان: «حدثنا عبد الرحمن بن القاسم وكان أفضل أهل زمانه أنه سمع أباه وكان أفضل أهل زمانه»[٤].

وروى خالد بن نزار عن ابن عيينة قال: «أعلم الناس بحديث عائشة ثلاثة القاسم وعروة وعمرة»[٥].

وقال يحيى بن معين: «يقول عبيد الله بن عمر عن القاسم عن عائشة ترجمة مشيكة بالذهب».

وعن يونس بن بكير عن ابن إسحاق قال: «رأيت القاسم بن محمد يصلي فجاء أعرابي فقال: أيكما أعلم أنت أم سالم،

(١) صفة الصفوة (٢/ ٦٣).
(٢) طبقات ابن سعد (٥/ ١٨٨).
(٣) سير أعلام النبلاء (٥/ ٥٤) وتاريخ دمشق (٤٩/ ١٦٥).
(٤) صفة الصفوة (٢/ ٦٣) وسير أعلام النبلاء (٥/ ٥٥).
(٥) سير أعلام النبلاء (٥/ ٥٥).
(٦) سير أعلام النبلاء (٥/ ٥٥).

فقال سبحان الله كُلٌّ سيخبرك بما علم، فقال: أيكما أعلم، قال: سبحان الله، فأعاد فقال: ذاك سالم انطلق فسله، فقام عنه قال ابن إسحاق: كره أن يقول أنا أعلم فيكون تزكية وكره أن يقول سالم أعلم مني فيكذب وكان القاسم أعلمهما[١].

وقال ابن وهب: ذكر مالك القاسم بن محمد فقال: «كان من فقهاء هذه الأمة»[٢].

قال مصعب الزبيري: «القاسم من خيار التابعين»[٣].

وقال العجلي: «كان من خيار التابعين وفقهائهم»[٤].
وقال هشام بن عمار: عن مالك قال: «أتى القاسم أمير من أمراء المدينة فسأله عن شيء فقال إن من إكرام المرء نفسه أن لا يقول إلا ما أحاط به علمه»[٥].

وعن أبي الزناد قال: «ما كان القاسم يجيب إلا في الشيء الظاهر»[٦].

وقال يحيى القطان: «فقهاء المدينة عشرة فذكر منهم القاسم»[٧].

---

(١) طبقات ابن سعد (٥/ ١٨٩) وصفة الصفوة (٢/ ٦٤).
(٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ٥٦).
(٣) المصدر السابق.
(٤) سير أعلام النبلاء (٥/ ٥٧).
(٥) تاريخ دمشق (٤٩/ ١٧٧).
(٦) سير أعلام النبلاء (٥/ ٥٧)، صفة الصفوة (٢/ ٦٤).

وقال مالك: «ما حدث القاسم مئة حديث»[١].

وقال أيضاً: «كان يزيد بن عبد الملك قد ولى العهد قبل ذلك، قال: وكان القاسم قليل الحديث قليل الفتيا وكان يكون بينه وبين الرجل المداراة في الشيء فيقول له القاسم: هذا الذي تريد أن تخاصمني فيه هو لك فإن كان حقاً فهو لك فخذه ولا تحمدني فيه وإن كان لي فأنت منه في حل وهو لك»[٢].

وهكذا لم يكن يكثر من الفتيا أو الحديث وذلك لشدة ورعه رضي الله عنه وأرضاه، وقد حدَّث عنه خلق كثير منهم ابنه عبد الرحمن والشعبي ونافع العمري وسالم بن عبد الله وأبو بكر بن حزم والزهري وابن أبي مليكة وربيعة الرأي وغيرهم كثير[٣].

ومن أقواله رضي الله عنه عن عبد الله البكري قال القاسم: «قد جعل الله من الصديق البار المقبل عوضاً من ذي الرحم العاق المدبر»[٤].

وعن يحيى بن سعيد: سمعت القاسم بن محمد يقول: «لأن يعيش الرجل جاهلاً بعد أن يعرف حق الله عليه خير له

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ٥٧).
(٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ٥٧).
(٣) سير أعلام النبلاء (٥/ ٥٧)، طبقات ابن سعد (٥/ ١٩٠).
(٤) سير أعلام النبلاء (٥/ ٥٣).
(٥) سير أعلام النبلاء (٥/ ٥٨).

من أن يقول ما لا يعلم»[١]. وقد اختلف في وفاته ما بين ست أو سبع أو ثمان ومائة.

قال خليفة بن خياط: «مات من آخر سنة ست أو أول سنة سبع ومائة[٢] وذلك كان بالمدينة».

وقيل مات سنة ثمان ومائة بالمدينة[٣].

وقيل إنه مات بقديد فقال: كفنوني في ثيابي التي كنت أصلي فيها قميصي وردائي هكذا كُفن أبو بكر وأوصى أن لا يُبنى على قبره[٤].

هذا العالم الرباني العابد الزاهد من الذي صنعته وعملت على إخراجه عالماً يهدي الأمة بسيرته وعلمه.

قال ابن عساكر عن القاسم: «قُتل أبوه قريباً من سنة ست وثلاثين بعد عثمان وبقي القاسم يتيماً في حجر عائشة»[٥]. وهكذا ربته أم المؤمنين الفقيهة العالمة عائشة رضي الله عنها فهي ليست من النساء العالمات فقط بل هي من النساء اللاتي صنعن علماء، فهل لنا في أم المؤمنين عائشة من قدوة بأن نتعلم ونعلم أولادنا كي يكونوا علماء يحملون شعلة العلم وينيرون

(١) المصدر السابق (٥/ ٥٩).
(٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ٥٤).
(٣) مولد العلماء ووفياتهم (١/ ٢٥٩).
(٤) سير أعلام النبلاء (٥/ ٦٠).
(٥) تاريخ ابن عساكر (٤٩/ ١٦٤).

بعلمهم وسيرتهم القلوب والعقول حتى تكون تلك الأم أو المرأة المسلمة خالدة في سجل النساء ولكنهن لسن كأي نساء بل هن نساء صنعن علماء.

٣ ـ سفيانُ الثوري(*)

شيخُ الإسلام وإمامُ الحفّاظ وسَيِّد العلماء العاملين في زمانه أبو عبد الله الثوري الكُوفي المجتهد، ولد سنة ٩٧هـ وطلب العلم وهو حَدَث. عن عبد الله بن المبارك: «ما أعلم على الأرض أعلم من سفيان»(١).

وعن أخيه مبارك بن سعيد بن مسروق: قال: «رأيت عاصم بن أبي النجود يجيء إلى سفيان يستفتيه ويقول أتيتنا يا سفيان صغيراً وآتيناك كبيراً»(٢).

وعن شعبة ويحيى بن معين وابن عُيينه وغيرهم أنهم أطلقوا على سفيان «أمير المؤمنين في الحديث»(٣).

(*) طبقات ابن سعد (٦/ ٣٧١ ـ ٣٧٤)، طبقات خليفة (١٦٨)، التاريخ الكبير (٤/ ٩٢ ـ ٩٣)، مشاهير علماء الأمصار (١٦٩ ـ ١٧٠)، حلية الأولياء (٦/ ٣٥٦)، تاريخ بغداد (٩/ ١٥١ ـ ١٧٤)، سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٢٩).

(١) الحلية (٦/ ٣٥٧).

(٢) تاريخ بغداد (٩/ ١٦٢).

(٣) سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٣٦).

وقال ابن أبي حاتم: «الناس على وجوه فمنهم من هو إمام في السنة إمام في الحديث، ومنهم من هو إمام في السنة وليس بإمام في الحديث، ومنهم من هو إمام في الحديث وليس بإمام في السنة، فأما مَنْ هو إمام في السنة إمام في الحديث فسفيان الثوري»[١].

وكان زائدة ـ وهو أحد كبار علماء الحديث ـ يقول: «الثوري سيد المسلمين»[٢].

وقال الإمام مالك رحمه الله: «إنما كانت العراق تجيش علينا بالدراهم والثياب ثم صارت تجيش علينا بالعلم منذ جاء سفيان الثوري»[٣].

وقال الأوزاعي: «لم يبق مَنْ تجتمعُ عليه الأمةُ بالرضا إلاّ سفيان»[٤].

وقال أبو بكر بن عياش: «إني لأرى الرجل صَحُبَ سفيان فيعظُم في عيني»[٥].

وعن سفيان بن عيينة قال: «ما رأيت رجلاً أعلمَ بالحلالِ والحرام من سفيان الثوري»[٦].

---

(١) مقدمة الجرح والتعديل (١/ ١١٨).
(٢) مقدمة الجرح والتعديل (١/ ١١٨).
(٣) تاريخ بغداد (٩/ ١٦٤).
(٤) مقدمة تفسير الثوري ص١٣.
(٥) مقدمة الجرح والتعديل ص٨٥.
(٦) سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٣٨).

وعن ابن أبي ذئبٍ قال: «ما رأيت أشبه بالتابعين من سفيان الثوري»[١].

وعن شعبة: «ساد سفيانُ الناسَ بالورع والعلم»[٢].

وقال عنه ابن المبارك: «تعجبني مجالس سفيان الثوري كنت إذا شئت رأيته في الورع وإذا شئت رأيته مصلياً وإذا شئت رأيته غائصاً في الفقه»[٣].

وقال علي بن المديني: «نظرت فإذا الإسناد يدور على ستة: الزهري وعمرو بن دينار وقتادة ويحيى بن أبي كثير وأبو إسحاق والأعمش ثم صار علم هؤلاء الستة من أهل الكوفة إلى سفيان»[٤].

وقال الإمام أبو حنيفة رحمه الله: «لو كان سفيان من التابعين لكان فيهم له شأن»[٥].

وقال الإمام أحمد بن حنبل وهو يتحدث عن سفيان: «لم يتقدمه في قلبي أحد»[٦].

ولقد كان سفيان الثوري من العلماء العاملين وكان كثيراً

---

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.
(٣) حلية الأولياء (٦/ ٣٥٨).
(٤) مقدمة الجرح والتعديل (ص٦٠).
(٥) تاريخ بغداد (٩/ ٦٩).
(٦) رسالة سفيان الثوري للدكتور عبد الحليم محمود ص٦٣.

ما يقول: «يهتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل»[١].

ويقول فيه الإمام الأوزاعي: «لو قيل لي اختر رجلاً يقوم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ لاخترت لهما الثوري»[٢].

ولقد كان حريصاً عبر سيرته بالاقتداء بالنبي ﷺ والعمل بسنته وكان يقول: «لا يستقيم قول إلا بعمل ولا يستقيم قول ولا عمل إلا بنية ولا يستقيم قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة»[٣].

وكان زاهداً في هذه الدنيا والزهد عنده له مفهومه الخاص: فقد كان يقول: «الزهد في الدنيا قصر الأمل ليس بأكل الغليظ ولا لبس العبا»[٤].

ولما سئل أيكون الرجل زاهداً وله مال قال: «نعم إن ابتلى صبر وإن أُعطى شكر»[٥].

وقال أحمد بن يونس في زهده: «ما رأيت أحداً أعلم من سفيان ولا أورع من سفيان ولا أفقه من سفيان ولا أزهد من سفيان»[٦].

---

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٦٥).
(٢) حلية الأولياء (٦/ ٣٥٨).
(٣) حلية الأولياء (٧/ ٣٢).
(٤) حلية الأولياء (٦/ ٣٨٦).
(٥) كتاب الورع (ص١١٢).
(٦) حلية الأولياء (٦/ ٣٥٩).

وقد اشتهر بكثرة تقديره للعمل بين الناس فقد كان يقول: عليك بعمل الأبطال: الكسب من الحلال والانفاق على العيال[١].

ولذلك كان يعمل بالتجارة حتى لا يحتاج لأحد، وتجتمع له عزة العلم وعزة الغنى عن الناس. ورغم كل هذه المكانة والعزة فقد كان شديد التواضع فلا يرى لنفسه ميزة عن إخوانه ولا يحب الشهرة بين الناس وكان يستصغر نفسه، فلقد رؤى مرة في مكة وقد كثر عليه الناس من حوله فقال: «ضاعت الأمة حين احتيج إليَّ»[٢]. وقد كان ورعاً شديد الورع يحاسب نفسه محاسبة دقيقة ومن عجائبه في ذلك أنه قال لجلسائه مرة: «اتقوا الشهوة الخفية أقول لكم اذهبوا إلى عملكم وقلبي يشتهي لا تبرحون»[٣].

وكان يقول مُحاسباً لنفسه: «حُرمت قيام الليل بذنب أحدثته خمسة أشهر»[٤].

وكان شديد الخوف من الله ﷻ وكان عندما يذكر الموت يغشى عليه ويرجف قلبه ولا ينتفع به. روى ابن أبي حاتم بسنده أن سفيان كان إذا ذكر الموت مكث أياماً لا ينتفع به فإذا سئل عن شيء قال: «ما أدري ما أدري»[٥].

---

(١) حلية الأولياء (٦/ ٣٨١).
(٢) حلية الأولياء (٦/ ٣٨٢).
(٣) كتاب الورع ص٥٩.
(٤) حلية الأولياء (٧/ ١٧).
(٥) مقدمة الجرح والتعديل ص٨٥.

وكان عبد الله بن رجاء المكي يقول: «ما رأيت أحداً أكثر ذكراً للموت من سفيان»[١].

وكان يخاف على نفسه من طلب العلم وفتنته ويقول: «وددت أنني أنفلت من هذا الأمر لا لي ولا علي أنا اليوم أطلب العلم فلأيّ شيء هو؟»[٢].

ولهذا كان يحث نفسه وغيره على مزج العلم بالعمل فقد كان يقول: «كفى بالحسرة والندامة يوم القيامة لمن كان يعلم ولا يعمل»[٣].

هذا العالم الرباني العامل الزاهد الورع كان كثيراً ما يقول: «من سُرَّ بالدنيا نُزع حب الآخرة من قلبه»[٤].

وقال: «ليس شيء أنفع للناس من الحديث والملائكة حُرّاس السماء وأصحاب الحديث حُرّاس الأرض»[٥].

وقد تُوفيَ سفيان وشهدت جموعٌ كثيرةٌ من المسلمين جنازته وقد رآه بعض الصالحين ـ بعد موته ـ منهم مصعب بن المقدام فقال: «رأيت النبيﷺ في النوم آخذاً بيد سفيان الثوري وهو يجزيه خيراً»[٦].

---

(١) مقدمة الجرح والتعديل ص١٠٣.
(٢) مقدمة الجرح والتعديل ص٦٢.
(٣) حلية الأولياء (٦/ ٣٩٢).
(٤) سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٦٨).
(٥) سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٧٩).
(٦) الذهبي (٧/ ٢٧٩).

وقال إبراهيم بن أَعْين: رأيتُ سفيان بن سعيد [أي الثوري] فقلت: ما صنعت؟ قال: «أنا مع السفرة الكِرَام البررة»[١].

وكان هذا العالم عابداً لله كثير القيام فعن محمد بن يوسف قال: «كان سفيان يقيمنا بالليل ويقول: قوموا يا شباب صلّوا ما دمتم شباباً»[٢]. ولقد وضح دور المرأة المسلمة في صناعة هذا العالم في كلمات سجَّلها العلماء بمداد من نور عن وكيع قال: قالت أمُّ سفيان لسفيان: «اذهب فاطلب العلم حتى أَعُولك بمِغْزَلي فإذا كتبت عشرة أحاديث فانظر هل تجد في نفسك زيادة فاتبعه وإلا فلا»[٣].

وهكذا كانت رحمها الله تعمل وتُقدم له ليتفرغ للعلم. وكانت تتخوله بالموعظة والنصيحة قالت له ذات مرة كما روى الإمام أحمد: «يا بُني إذا كتبت عشرة أحرف فانظر هل ترى في نفسك زيادة في خشيتك وحلمك ووقارك فإن لم تر ذلك فاعلم أنها تضرك ولا تنفعك»[٤]. وهكذا لا غرابة أن نجد ذلك العالم يصل إلى ما وصل إليه من العلم والعمل ما دام تربى على يد هذه الأم الحكيمة وتغذى بلبان هذه الأمّ الرحيمة الناصحة التقية.

---

(١) الحلية (٦/ ٢٨٤).
(٢) مقدمة الجرح والتعديل.
(٣) تاريخ جرجان (١/ ٤٩٢). سير أعلام النبلاء للذهبي (٧/ ٢٦٩).
(٤) الإمام الثوري حياته العلمية والعملية للبيانوني ص٣٦، ص٣٧.

وهكذا المرأة المسلمة تصنع بمغزلها وكلماتها عالم يشهد له الجميع بالفضل ويشيع اسمه على كل لسان. ولم يُسجَّل لنا عن تلك الأم إلا هذا التوجيه العظيم للعمل والعلم معاً فما أعظم أثر الأمهات الصالحات في توجيه أولادهن لكي يصبحوا علماء لا تشغلهم الدنيا بزخرفها عن طلب العلم ونيل الفضل.

وصدق من قال: [البسيط]

ألهى عن العلم أقواماً تطلُّبهم؟
لذَّاتِ دنيا غدوا منها على غرر
وخلَّفوا ما له حظٌّ ومكرمة
إلى التي هي دأب الهون والخطرِ
وأيُّ فخرٍ بدُنياه لمن هَدَمتْ
معايبُ الجهلِ منه كل مفتخرِ
لا تفخرنَّ بدنيا لا بقاءَ لَهَا
وبالعفافِ وكسبِ العلم فافتخرِ
يَفْنَى الرجالُ ويبقى علمهم لهمُ
ذكراً يُجدَّدُ في الآصال والبكرِ

٤ ـ محمد بن إدريس الشافعي(*)

هو الشهاب الثاقب الذي انتظم حواشي الأرض فملأ أقطارها علماً وفقهاً، هو العلامة صاحب أحد المذاهب الفقهية الأربعة هو محمد بن إدريس الشافعي.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»(١).

قال أحمد بن حنبل رحمه الله: «نظرنا فإذا في رأس المائة الأولى عمر بن عبد العزيز وفي رأس المائة الثانية محمد بن إدريس الشافعي»(٢). وقال مالك: «ما يأتيني قُرَشي أفهم من هذا الفتى ـ يعني الشافعي»(٣).

وكان سفيان بن عيينه إذا جاءه شيء من الفُتيا والتفسير

(*) تاريخ بغداد (٢/ ٦٢) والمناقب للبيهقي (١/ ٥٥) والبداية والنهاية (١٠/ ٢٥٣) وطبقات الشافعية للسبكي (١/ ٢٠٠) وحلية الأولياء (٩/ ٩٧ ـ ٩٨).

(١) سبق تخريجه في ترجمة عمر بن عبد العزيز.

(٢) سبق هذا القول في ترجمة عمر بن عبد العزيز.

(٣) ابن عساكر (١٤/ ٤٠٤) والمناقب للرازي (١٧).

يُسأل عنها التفت إلى الشافعي فيقول: «سلوا هذا»[١].

وقال أحمد بن حنبل: «لولا الشافعي ما عرفنا فقه الحديث»[٢].

وكان إبراهيم الحربي يقول: «أستاذ الأستاذين» قالوا: من هو؟ قال: «الشافعي أستاذ أحمد بن حنبل»[٣].

وقال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم: «ما رأينا مثل الشافعي كان أصحاب الحديث ونقادُه يجيئون إليه فيعرضون عليه فربما أَعَلَّ نَقْدَ النقاد منهم ووقفهم على غوامض من علل الحديث لم يقفوا عليها فيقومون وهم متعجبون منه»[٤].

وقال أبو ثور: «كان الشافعي قلما يُمسك شيئاً من سماحته»[٥].

وقال الحميدي: «كان الشافعي يختم القرآن كل يومٍ ختمه»[٦].

قال الذهبي: «قال الربيع بن سليمان ـ من طريقين عنه بل أكثر ـ كان الشافعي يختم القرآن في شهر رمضان ستين

(١) الحلية (٩/ ٩١ ـ ٩٢).
(٢) ابن عساكر (١٤/ ٤١٤).
(٣) تاريخ بغداد (٢/ ٦٦).
(٤) مناقب الشافعي لابن الجزري ص١٢٨.
(٥) الحلية (٩/ ١٢٧، ١٣٢).
(٦) تهذيب الأسماء واللغات للنووي (١/ ٥٤).

ختمه»[١].

هم الرجال وعيبٌ أن يُقال لمن
لم يتصف بمعاني وصفهم رَجُلُ

ومن أقوال الشافعي قال: «أشد الأعمال ثلاثة: الجُود من قلة والورع في خلوة وكلمة الحق عند من يُرجى ويُخاف»[٢].

وقال الشافعي: «الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء فكن بين المنقبض والمنبسط»[٣].

وقال: «ليس العلم ما حُفِظ: العلم ما نَفَع واستُعْمِل»[٤].

وقال: «رضى الناس غاية لا تدرك فعليك بما يصلحك فالزمه فإنه لا سبيل إلى رضاهم، واعلم أن من تعلَّم القرآن جلَّ في أعين الناس، ومن تعلَّم الحديث قويت حجته، ومن تعلم النحو هيب ومن تعلم العربية رق طبعه، ومن تعلم الحساب جزل رأيه، ومن تعلم الفقه نبل قدره ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه وملاك ذاك كله التقوى»[٥].

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٣٥).
(٢) صفة الصفوة (٢/ ١٦٧).
(٣) الحلية (٩/ ١٢٢) تهذيب الأسماء (١/ ٥٧).
(٤) الحلية (٩/ ١٢٣) وتهذيب الأسماء (١/ ٥٤) وسير أعلام النبلاء (١٠/ ٨٩).
(٥) الحلية (٩/ ١٢٣) وآداب الشافعي (٢٧٨ ـ ٢٧٩) وصفة الصفوة (٢/ ١٤٤).

هذا العَلَم الذي يشع بالحكمة والنور في كل قول من أقواله قال عنه الشيخ أحمد شاكر: «نبغ الشافعي في الحجاز وكان إلى علمائه مرجع الرواية والسنة وكانوا أساطين العلم في فقه القرآن، ولم يكن الكثير منهم أهل لُسُن وجدل وكادوا يعجزون عن مناظرة أهل الرأي فجاء هذا الشاب يُناظر ويُنافح ويعرف كيف يقوم بحُجته وكيف يُلزم أهل الرأي وجوب أتباع السنة وكيف يُفصِّل للناس طرق فهم الكتاب حتى سماه أهل مكة «ناصر الحديث». وتواترت أخباره إلى علماء الإسلام في عصره فكانوا يفدون إلى مكة للحج يُناظرونه ويأخذون عنه حياة شيوخه حتى أن أحمد بن حنبل جلس معه مرة فجاء أحد إخوانه يعتب عليه أن ترك مجلس ابن عيينه ـ شيخ الشافعي ـ ويجلس إلى هذا الفتى فقال له أحمد: «اسكت إنك إن فاتك حديث بعلوّ وجدته بنزول وإن فاتك عقل هذا أخاف أن لا تجده ما رأيت أحداً أفقه في كتاب الله من هذا الفتى»[١].

لقد كان ذلك العالم (ناصر الحديث) صنعة نسائية وثمرة أم عظيمة، فقد مات أبوه وهو جنين أو رضيع فتولته أمه بالرعاية وأشرقت عليه بحكمتها، وكانت امرأة من فُضليات عقائل الأزد، وتنقلت به من غزة مهبطهُ إلى مكة مستقر أخواله فربته بينهم[٢].

(١) مقدمة كتاب الرسالة للشافعي بقلم الشيخ أحمد محمد شاكر.
(٢) طبقات الأدباء (٦/ ٣٦٨).

وعن الحميدي عن الشافعي قال: «كنت يتيماً في حجر أمي ولم يكن معها ما تعطي المعلم، وكان المعلم رضيَ مِنّي أن أخلفه إذا قام، فلما ختمت القرآن دخلت المسجد فكنت أجالس العلماء فأحفظ الحديث والمسألة»[١].

وقد حفَّظته القرآن وهو ابن سبع سنين وورث منها حسن الاستنباط وصفاء الفطرة.

قال ابن حجر: «كانت أم الشافعي رحمها الله ـ باتفاق النقلة ـ من العابدات القانتات ومن أزكى الخلق فطرة، ومن طريف ما يُحكى عنها من الحذق والذكاء أنها شهدت عند قاضي مكة هي وأخرى مع رجل فأراد أن يفرق بين المرأتين فقالت له أم الشافعي: «ليس لك ذلك لأن الله ﷻ يقول: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢] فرجع القاضي لها في ذلك[٢].

قال الحافظ: «وهذا فرع غريب واستنباط قوي»[٣].

وهكذا صنعت لنا تلك المرأة المسلمة هذا العالم العابد العامل بعلمه الذي جعلته بحكمتها مَقْصد العلماء، وهكذا كانت الأم في عصور الإسلام الزاهية وأيامه الخالية مهبط الشرف الحر والعز المؤثل والمجد المكين رحم الله نساء المسلمين:

---

(١) صفة الصفوة (٢/١٦٦).
(٢) توالي التأسيس لابن حجر ص٤٦.
(٣) المصدر السابق.

[الوافر]

ولئن كان النساءُ كمن ذكرنا
لَفُضِّلَتِ النِّسَاءُ على الرجالِ
وما التأنيثُ لاسم الشمس عيبٌ
وما التذكيرُ فخراً للهلال

٥ ـ مالك بن أنس(*)

هو شيخ الإسلام حُجة الأمة، إمامُ دار الهجرة أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك.

قال عنه ابن عيينه: «مالك عالم أهل الحجاز وحُجة أهل زمانه»(١).

وقال الشافعي: «إذا ذُكر العلماء فما لك النجم»(٢).

قال يحيى القطانُ: «ما في القوم أصح حديثاً من مالك كان إماماً في الحديث»(٣).

قال الشافعي: «قال محمد بن الحسن ـ صاحب أبي حنيفة وتلميذه ـ أقمت عند مالك ثلاث سنين وكسرا وسمعت من لفظه أكثر من مئة حديث، فكان محمداً إذا حدّث عن مالك

(*) سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٤) الديباج المذهب: (١٧) صفة الصفوة (٩٩) الحلية (٦/ ٣١٦) شذرات الذهب (٢/ ١٢ ـ ١٥).

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ٥١).

(٢) الحلية (٦/ ٣١٨).

(٣) سير أعلام النبلاء (٨/ ٦٧).

امتلأ منزله وإذا حَدَّث عن غيره من الكوفيين لم يجئه إلا اليسير»[١].

وقال الشافعي أيضاً: «مالك مُعلمي وعنه أخذت العلم».

وعن حنبل بن إسحاق قال: «سألت أبا عبد الله عن مالك فقال: «مالكٌ سيدٌ من سادات أهل العلم وهو إمام في العلم والفقه ثم قال: ومن مثل مالكٍ متبع لآثار من تقدم مع عقل وأدب»[٢].

وقال عنه الذهبي: «طلب العلم وهو حَدَث وتأهل للفُتيا وجلس للإفادة وله إحدى وعشرون سنة وحدَّث عنه جماعة وهو حَيي شاب طريّ»[٣].

لله دره من إمام نشأ مُحِباً للعلم منذ صِغره ودرّس العلم وجلس للفتيا في سن صغير فَيا له من شباب عرف كيف يخدم دينه بالعلم ونشره وخدمة سنة الرسول ﷺ.

ومن أقوال الإمام مالك: «قيل لمالك بن أنس: ما تقول في طلب العلم؟ قال: حَسَن جميل، لكن انظر إلى الذي يلزمُك مِن حين تصبح إلى حين تُمسي فالزمه»[٤].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ٦٧ ـ ٦٨).
(٢) صفة الصفوة (٢/ ١٢١).
(٣) سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٩ ـ ٥٥).
(٤) صفة الصفوة (٢/ ١٢١).

وعن عبد الله بن وهب قال: «سمعت مالك بن أنس يقول: ليس العلم بكثرة الرواية وإنما هو نور يضعه الله في القلب»[١].

وعن مالك قال: «الجِدَال في الدين يُنشيء المراء ويُذهب بنور العلم من القلب ويُقسي ويُورث الضِّغن»[٢].

عن أبي ثَوْر: سمعت الشافعي يقول: «كان مالك إذا جاءه بعض أهل الأهواء قال: أما إني على بَيِّنة من ديني وأمَّا أنت فشاك اذهب إلى شاكٍّ مثلك فخاصمه».

وعن مالك قال: «بلغني أنه ما زَهِدَ أحد في الدنيا واتقى إلا نطق بالحكمة»[٣].

وعن ابن وَهْب عن مالك قال: «إن الرجل إذا ذهب يمدح نفسه ذهب بهاؤه»[٤].

وعن ابن وهب سمعت مالكاً يقول: «حقٌ على من طلب العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية، والعلم حسنٌ لمن رُزِق خيره وهو قَسْم مِن الله تعالى فلا تمكن الناس من نفسك، فإن من سعادة المرء أن يُوَفَّق للخير، وإن من شِقوة المرء أن لا يزال يخطىء، وذلٌّ وإهانة للعلم أن يتكلم الرجل

(١) المصدر السابق.
(٢) سير أعلام النبلاء (٨/ ٩٥).
(٣) سير أعلام النبلاء (٨/ ٩٧).
(٤) المصدر السابق.

بالعلم عند من لا يُطيعه»[١]. هذا الإمام العالم الشاب الذي سَخَّر علمه في خدمة دينه من صانعته؟ إنها أمه التي كانت تقول له: «اذهب إلى ربيعه فتعلم من أدبه قبل علمه»[٢].

وعن الإمام مالك: «قلت لأمي أذهب فاكتب العلم؟ فقالت: «تعال فالبس ثياب العلم» فألبستني مسمرة ووضعت الطويلة على رأسي وعممتني فوقها ثمّ قالت: «اذهب فاكتب الآن»[٣].

هكذا تحثّ الأم المسلمة ولدها الصغير وهو في ريعان شبابه لكي يطلب العلم فيصل بفضل الله ثم بفضل تشجيعها لأن يصير إماماً يقول فيه مصعب بن عبد الله:

[الكامل]

يَدَعُ الجواب فلا يُراجَعُ هَيْبةً
والسائلون نواكِسُ الإذقان
عِزُّ الوقارِ ونُورِ سُلْطانِ التُّقَى
فهو المَهِيبُ وليس ذا سلطان

ذلك الإمام صنعته المرأة المسلمة والأم المسلمة التي ذكَّت في نفسه حب العلم ووهبته لله ﷻ فأنبته الله نباتاً حسناً ـ

(١) ترتيب المدارك (١/ ١٨٦ ـ ١٨٩).
(٢) عودة الحجاب (٢/ ٢٠٧).
(٣) مقدمة الديباج المذهب لابن فرحون.

في ظل الإسلام وتحت رعاية أم مسلمة ـ فكان من العلماء الذين يرفعون راية العلم وراية الإسلام خفّاقه عبر العصور وكان من الأئمة الأعلام عبر العصور.

وصدق من قال: [الوافر]

مَلَكنا هذه الدنيا لقروناً
وأخضعها جدود خالدونا
وطَّرنا صحائف من ضياء
فما نمسي الزمان ولا نسينا
بنينا خفية في الأرض مُلْكا
يُدعمه شباب طامحونا
شبابٌ ذلَّلُوا سُبُل المعالي
وما عرفوا سوى الإسلام دينا
كذلك أخرج الإسلام قومي
شباباً مُخلصاً حراً أمينا

فقد صنعت الأم المسلمة ـ التي صنعها الإسلام ـ شباباً وعلماء سجلَّهم التاريخ في كواكبه من علماء العصور المختلفة ليكونوا في سجل العلماء ولكن صنعتهم نساء مسلمات.

٦ ـ أحمد بن حنبل (*)

هو الإمام حقاً وشيخ الإسلام صدقاً أبو عبد الله أحمد بن حنبل. قال عبد الرزاق: «ما رأيتُ أفقه ولا أورع من أحمد بن حنبل»(١).

وعن أبي زُرعة قال: «كان أحمد بن حنبل يحفظ ألف ألف حديث فقيل له وما يدريك؟ قال: ذاكرته فأخذت عليه الأبواب»(٢).

وقال يحيى القطان: «ما قدم علينا مثل هذين أحمد ويحيى بن معين، وما قدم عليَّ من بغداد أحب إليّ من أحمد بن حنبل»(٣).

وعن إبراهيم الحربي قال: «رأيت أحمد بن حنبل كأن الله

(*) طبقات ابن سعد (٧/ ٣٥٤) تاريخ القسوي (١/ ٢١٢) طبقات الحنابلة (١/ ٤، ٢٠) مناقب الإمام أحمد وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال (١١، ١٢) شذرات الذهب (٢/ ٩٦، ٩٨) سير أعلام النبلاء (١١/ ١٧٨).

(١) صفة الصفوة (٢/ ٢٢٢).

(٢) المصدر السابق.

(٣) سير أعلام النبلاء (١١/ ١٨٩).

قد جمع له علم الأولين والآخرين»[١].

عن إبراهيم بن شماس قال: «كنت أعرف أحمد بن حنبل وهو غُلام وهو يحيى الليل»[٢].

وكان الإمام شديد الورع واشتهر بذلك منذ صباه، فقد كان عمه يرسل إلى بعض الولاة بأحوال بغداد ليُعلم بها الخليفة، وقد أرسلها مرة مع ابن أخيه أحمد بن حنبل فتورع عن ذلك ورمى بها في الماء تأثماً من الوشاية والتسبب لما عسى أن يكون فيه ضرر بالمسلمين. وقد لفت هذا الورع وهذه النجابة كثيراً من أهل العلم والفراسات حتى قال الهيثم بن جميل: «إن عاش هذا الفتى فسيكون حُجة على أهل زمانه»[٣].

وقال قتيبة: «خير أهل زماننا ابن المبارك ثم هذا الشاب يعني أحمد بن حنبل. وإذا رأيت رجلاً يحب أحمد فاعلم أنه صاحب سنة ولو أدرك عصر الثوري والأوزاعي والليث لكان هو المقدم عليهم، فقيل لقتيبة: يُضم أحمد إلى التابعين؟ قال: إلى كبار التابعين»[٤].

وقال أيضاً: «لولا الثوري لمات الورع، ولولا أحمد

(١) صفة الصفوة (٢/ ٢٢٢).
(٢) سير أعلام النبلاء (١١/ ٢٢٨).
(٣) علو الهمة ص٣٧٣.
(٤) سير أعلام النبلاء (١١/ ١٩٥).

لأحدثوا في الدين، أحمد إمام الدنيا»[١].

وقال حرملة سمعت الشافعي يقول: «خرجت من بغداد فما خلفت بها رجلاً أفضل ولا أعلم ولا أفقه ولا أتقى من أحمد بن حنبل»[٢].

وعن ابن المديني قال: «أعزّ الله الدين بالصِّديق يوم الرِّدَّة وبأحمد يوم المحنة»[٣]. أي محنة خلق القرآن الذي ثبت فيها الإمام ثباتاً رفعه الله بها وأعز به الإسلام وجعله حجة على أهل زمانه.

وقال عبد الله بن أحمد: «قال أصحاب بشر الحافي له حين ضُرب أبي: لو أنت خرجت فقلت إني على قول أحمد فقال: أتريدون أن أقوم مقام الأنبياء»[٤].

وقال النسائي: «جمع أحمد بن حنبل المعرفة بالحديث والفقه والورع والزهد والصبر»[٥].

عن محمد ابن أبي بشر قال: «أتيت أحمد بن حنبل في مسألة فقال: ائتِ أبا عبيد فإن له بياناً لا تسمعه من غيره، فأتيته فشفاني جوابه فأخبرته بقول أحمد فقال: ذاك رجلٌ من

(١) سير أعلام النبلاء (١١/ ١٩٥).
(٢) المصدر السابق.
(٣) سير أعلام النبلاء (١١/ ١٩٦).
(٤) المصدر السابق.
(٥) سير أعلام النبلاء (١١/ ١٩٩).

عمال الله. نشر الله رداء عمله وذَخَر له عنده الزُّلفى أما تراه محبباً مألوفاً ما رأت عيني بالعراق رجلاً اجتمعت فيه خصال هي فيه، فبارك الله له فيما أعطاه من الحلم والعلم والفقه فإنه كما قيل: [الطويل]

يُـزيـنُـك مـا غـاب عـنـك فـإن دنـا
رأيـت لـه وجـهـاً يـسُـرُّك مُـقْـبـلاً
يُـعـلـم هـذا الـخـلـق مـا شـذَّ عـنـهـمُ
مـن الأدب الـمـجـهـول كـهـفـاً ومَـعْـقِـلاً
ويـحْـسُـنُ فـي ذات الإلـه إذا رأى
مَـضـيـمـاً لأهـل الـحـق لا يـسـأم الـبَـلَا
وإخـوانـه الأدنـوْن كُـلُّ مُـوَقَّـفٍ
بـصـيـرٍ بـأمـر الله يـسـمـو عـلـى الـعُـلا[1]

ومن أقوال هذا الإمام الجليل: «إذا ذكرتُ الموت هان عليَّ كل أمر الدنيا إنما هو طعامٌ دون طعام ولباسٌ دون لباس وإنها أيامٌ قلائل ما أعدل بالفقر شيئاً ولو وجدتُ السبيل لخرجت حتى لا يكون لي ذكر»[2].

وقال عبد الله بن أحمد: سمعت أبي يقول: «وددت أني نجوت من هذا الأمر كفافاً لا عَلَيَّ ولا لي».

وقال الميموني: قال لي أحمد: «يا أبا الحسن إيَّاك أن

(١) سير أعلام النبلاء (١١/ ٢٠١).
(٢) سير أعلام النبلاء (١١/ ٢١٥ ـ ٢١٦).

تتكلم في مسألة ليس لك فيها إمام»[١].

وقال أحمد: «من ردَّ حديث رسول الله ﷺ فهو على شفا هَلَكَة»[٢].

وهكذا كان رحمه الله ناصراً للسنة وصابراً عند المحنة حتى أصبح من يحبه محباً للسنة ومن يكرهه مبتدعاً، وصدق من قال: [الكامل]

أضْحى ابنُ حنبل مِحنَةً مَرَضِيَّة
وبحُبِّ أحمدَ يُعْرَفُ المُتنَسِّكُ
وإذَا رأيتَ لأحْمَدٍ مُتنقصاً
فاعلم بأن سُتُورَهُ ستُهَتَّكُ[٣]

هذا العالم الحجة من الذي صنعه؟، لقد صنعته أمه فلقد روت المصادر أن أحمد بن حنبل تربى يتيماً في حجر أمه حيث مات أبوه شاباً ووليته أمه[٤].

وقد عودته على طلب العلم في صغره، فقد حفظ القرآن في صباه وتعلم القراءة والكتابة ثم اتجه إلى الديوان يمرن على التحرير ويقول عن نفسه: «كنت وأنا غُليم أختلف إلى الكُتَّاب ثم أختلف إلى الديوان وأنا ابن أربعَ عشرة سنة»[٥]. وكانت

(١) سير أعلام النبلاء (١١/ ٢٩٦).
(٢) سير أعلام النبلاء (١١/ ٢٩٧).
(٣) تاريخ بغداد (٤/ ٤٢٠ ـ ٤٢١).
(٤) سير أعلام النبلاء (١١/ ١٧٩).
(٥) علو الهمة ص٣٧٢.

تلك النشأة ـ التي صنعته فيها أم مسلمة ـ مثار لتعجب الكثيرين فقد قال بعض الآباء: «وأنا أنفق على ولدي وأجيئهم بالمؤدبين على أن يتأدبوا فما أراهم يفلحون، وهذا أحمد بن حنبل غلام يتيم انظروا كيف!!» وجعل يعجب من أدبه وحسن طريقته[1]. وهكذا ظلت المرأة المسلمة تسعى لصنع علماء يحملون لواء السنة ويرفعونها عالية خفاقة، وصدق من قال في وصف هؤلاء العلماء: [الكامل]

وقفوا على هام الزمان رجالاً
يتوثَّبون تطلُّعاً ونضالاً
وحي السماء يجيش في أعماقهم
ونداؤه من فوقه يتعالى
باعوا النفوس لربهم واستمسكوا
بكتابه.. واستقبلوا الأهوالا
وامتد في شرق البلاد وغربها
نور تَتِيْهُ به الحياة جمالاً
فتشبَّهوا إن لم تكونوا مثلهم
أُسدٌ تُخَلِّف بعدها أشبالاً

رحم الله أم الإمام أحمد ورحم الله ذلك الإمام الجليل ورزق الأمة علماء صالحين يرفعون راية السنة عبر كل العصور!

(١) المصدر السابق ص٣٧٣.

٧ ـ حَجَّاج بن الشاعر(*)

هو حجاج بن يوسف بن حجاج الثقفي أبو محمد، ويُعرف بابن الشاعر وقيل له ابن الشاعر لأن أباه كان شاعراً وصحب أبا نواس وأخذ عنه وأما ابنه حجاج فأحد أئمة الحديث الثقات(١).

ولد هذا الإمام في بغداد وسمع من كثير من علمائها منهم يعقوب بن إبراهيم بن سعد، وحجاج بن محمد وأبي النضر وأبا أحمد الزبيري(٢). ولقد روى عنه خلقٌ كثير من أهل العلم ولعلَّ أشهرهم: الإمام مسلم بن حجاج صاحب صحيح مسلم وأبي داود السجستاني صاحب السنن وروى عنه أبو يعلى وأبو حاتم وابنه عبد الرحمٰن(٣).

(*) المنتظم من ٢٥٧هـ (٥/ ٢٠)، سير أعلام النبلاء (١٢/ ٢٩٩) طبقات الحفاظ (١/ ٢٤٧)، طبقات الحنابلة (١/ ١٤٩)، تاريخ بغداد (٨/ ٢٤٠).

(١) طبقات الحفاظ ((١/ ٢٤٧)، سير أعلام النبلاء (١٢/ ٢٩٩).

(٢) طبقات الحنابلة (١/ ١٤٩) وتاريخ بغداد (٨/ ٢٤١).

(٣) طبقات الحفاظ (١/ ٢٤٨)، طبقات الحنابلة (١/ ١٤٩).

ولقد قام حجَّاج برحلات كثيرة إلى مختلف البلدان (العراق والحجاز والشام) في سبيل طلب العلم ولقاء الشيوخ، وكان هذا اللقاء ضرورياً للتمكن من علوم الحديث ولأن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً.

ولقد ارتبط حجاج بالإمام أحمد بن حنبل وأحبه كثيراً وحزن لموته ـ كما حزن على ذلك الإمام كل صاحب سنة ـ وروى أنه قال: «ما كنت أحب أن أُقتل في سبيل الله ولم أصل على أحمد بن حنبل»[١].

كما كان شديد الاحترام للعلماء المعاصرين له فعن أبي عمارة عن القاسم بن نصر قال: مَرَّ المروزي بحجاج بن الشاعر فقام إليه وقال: «سلامٌ عليك يا خادم الصديقين»[٢].

وقد وثَّقه علماء عصره ورجال الجرح والتعديل.

قال ابن أبي حاتم: «كتبت عنه وهو ثقة من الحُفاظ ممن يحسن الحديث وسئل أبي عنه فقال صدوق»[٣].

وقال أبو عبد الرحمٰن النسائي: «أبو محمد حجاج بن يوسف بغدادي ثقة»[٤].

---

(١) حلية الأولياء (٩/ ١٧٣).
(٢) المصدر السابق.
(٣) طبقات الحنابلة (١/ ١٥٠)، سير أعلام النبلاء (١٢/ ٣٠١).
(٤) طبقات الحفاظ (١/ ١٥٠) وتاريخ بغداد (٨/ ٢٤٠).

وقال صاحب طبقات الحنابلة: «كان ثقة فهماً من الحفاظ»[١].

وقال محمد بن علي الآجري: قلت لأبي داود سليمان بن الأشعث: أيما أحب إليك الرمادي أو حجاج بن الشاعر؟ فقال: «حجاج خير من مائة مثل الرمادي»[٢].

ولقد كان عالماً عاملاً شديد الورع فعن الأزهري قال: قال لنا أبو بكر بن شاذان حدثني المحاملي ـ وهو من الذين أكثروا الرواية عن الإمام ـ قال: بلغني عن حجاج بن الشاعر أنه سمعه بعض الجيران وهو يقول: كذبت يا عدو الله كذبت يا عدو الله، قال فدخل عليه فقال: ما هذا؟ قال: أدخلت أحليلي في جوف البالوعة فجاء الشيطان فقال قد أصاب طهرك قال[٣].

وبلغني (أي صاحب تاريخ بغداد) أنه مَرّ يوماً في درب وفي آخره مِيزَاب فقال: أصابني لم يصبني (أي شك) فلما طال عليه جاء فجلس تحته وقال: استرحت من الشك[٤].

وكما قلت قبل ذلك أنه كان كثير الرحلة في طلب العلم مع شدة فقره وعدم استعداده بالمال اللازم للإنفاق على هذه

(١) طبقات الحنابلة (١/ ١٥٠).
(٢) تاريخ بغداد (٨/ ٢٤٠)، المنتظم ٢٥٧هـ (٥/ ٢١).
(٣) تاريخ بغداد (٨/ ٢٤٠).
(٤) تاريخ بغداد (٨/ ٢٤١).

الرحلات، وهذا يدل على حبه للعلم وحرصه على طلبه مهما كلفه الأمر. ولعل خير مثل يوضح لنا شدة معاناته في طلب العلم قوله: «جمعت لي أمي مائة رغيف وجعلتها في جراب وانحدرت إلى شيابه(*) بالمدائن فأقمت ببابه مائة يوم كل يوم أجيء برغيف فأغمسه في دجلة فآكله فلما نفذت خرجت»(١).

وهكذا تظهر اليد الدافعة لهذا العالم الثقة الإمام، إنها الأم التي تعينه بالزاد القليل ليطلب العلم النافع الذي سيكون زاده في سفره الطويل. وهكذا كانت أم حجاج من العوامل المساعدة له بل من الصانعات له فلقد صَحِبَ زوجها الشعراء فأحبت هي أن يصحب ابنها العلماء وشتان بين الصحبتين. وهكذا ربَّت ولدها على حب العلم والصبر في طلبه، ورغم أن التراجم لم يسجل لنا اسمها إلا أن التاريخ خلَّد لها ذلك الموقف فروته عدة مصادر ليظهر عبر صفحات التاريخ دور المرأة المسلمة في صناعة ومساعدة تلك الكواكب المنيرة من العلماء المجتهدين.

رحم الله أم حجاج ورزقها الله عنه وعن الإسلام خير الجزاء فقد دفعت بولدها إلى ساحة النور والعلم التي لا يخوضها إلا كل من أحب الله ورسوله وأخرجت للأمة إماماً

(*) هو شَيَابة بن سَوَار مُحدث ثقة أخذ عنه ابن حنبل وكثيرون أصله من خراسان سكن المدائن وأقام مدة ببغداد.

(١) المنتظم من ٢٥٧هـ (٥/ ٢٠) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٣٠١)، تاريخ بغداد (٨/ ٢٤٠) وطبقات الحنابلة (١٠٦).

عالماً لحق بركب العلماء الذين صنعتهم نساء والذين أعلوا من شأن السنة:

أضحوا من السُّنَّةِ العلياء في سَنَنٍ
سهلٍ وقاموا بحفظ الدين والأثر
أجلَّ شيء لديهم قال أخبرنا
عن الرسول بما قد صحَّ من خبَر[1]

(١) الأبيات من بحر الطويل.

٨ ـ ربيعة الرأي(*)

هو ربيعة بن أبي عبد الرحمٰن مولى التيمين، واسم أبي عبد الرحمٰن فروخ ويُقال له ربيعة الرأي وكنيته أبو عثمان(١).

مفتي المدينة وعالم الوقت وأحد الأئمة المجتهدين الذين حملوا العلم ونشروا نوره في بقاع الأرض، وقد أخذ عنه خلق كثير من الأئمة مثل مالك والثوري وقد أثنى عليه الكثيرون من أئمة العلم.

قال يحيى بن سعيد: «ما رأيت أحداً أفطن من ربيعة»(٢).

قال أبو بكر الخطيب: «كان ربيعه فقيهاً عالماً حافظاً للفقه والحديث»(٣).

(*) طبقات خليفة (٢٦٨) تاريخ البخاري (٢/ ٢٨٦) تاريخ بغداد (٨/ ٤٢٠) وثقات ابن حبان (٣/ ٦٥) صفة الصفوة (٢/ ٨٣) سير أعلام النبلاء (٦/ ٨٩).

(١) ثقات ابن حبان (٣/ ٦٥).

(٢) صفة الصفوة (٢/ ١٠٣).

(٣) سير أعلام النبلاء (٦/ ٩٣).

وقال الليث قال لي عبيد الله بن عمر: «هو [أي ربيعة] صاحب معضلاتنا وأعلمنا وأفضلنا»[١].

وقال مصعب الزبيري: «كان يُقال له ربيعة الرأي وكان صاحب الفتوى بالمدينة وكان يجلس إليه وجوه الناس وكان يحصى في مجلسه أربعين معتماً»[٢].

وعن عبد الرحمٰن زيد بن أسلم قال:

«مكث ربيعة دهراً طويلاً عابداً يصلي الليل والنهار وصاحب عبادة ثم نزع ذلك إلى أن جالس القوم، قال: فجالس القاسم فنطق بلُبّ وعقل قال: وكان القاسم إذا سئل عن شيء قال: سلو هذا لربيعة»[٣].

وكان جواداً كريماً قال عنه الذهبي: «ما كان بالمدينة رجلاً أسخى بما في يديه لصديق أو لابن صديق أو لباغ يبتغيه منه، كان يستصحبه القوم فيأبى صحبة أحد إلا أحداً لا يتزود معه ولم يكن في يده ما يحمل ذلك»[٤]،

وكان شديد الخشوع كثير البكاء، عن سفيان قال: «كان ربيعة بن أبي عبد الرحمن يوماً جالساً فغطى رأسه ثم اضطجع فبكى فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: رثاء ظاهر وشهوة خفية»[٥].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٦/ ٨٩).
(٢) سير أعلام النبلاء (٦/ ٩١).
(٣) سير أعلام النبلاء (٦/ ٩١).
(٤) سير أعلام النبلاء (٦/ ٩٢).
(٥) صفة الصفوة (٢/ ١٠٤).

وعن ربيعة بن أبي عبد الرحمن قال: «لقد رأيت مشيخة المدينة وإن لهم لغدائر وعليهم الممصَّر والمورَّد في أيديهم مخامر وفي أيديهم آثار الجنَّاء في هيئة الفتيان ودين أحدهم أبعد من الثريا إذا أريد على دينه»[١].

وقال يحيى بن معين عن ربيعة الرأي: «كان ثقة كثير الحديث وكانوا يتقونه لموضع الرأي»[٢].

وقال ربيعة: «المروءة في الحضر: الإدمان إلى المساجد وتلاوة القرآن وكثرة الإخوان في الله ﷻ»[٣].

عن سوَّار بن عبد الله العنبري قال: «ما رأيتُ أحداً أعلم من ربيعة الرأي قيل: ولا الحسن وابن سيرين؟ قال: ولا الحسن وابن سيرين»[٤].

وصحَّ عن ربيعة أنه قال: «العلم وسيلة إلى كل فضيلة»[٥].

ولقد جاء في نشأة وحياة هذا الإمام قصة طويلة جاء فيها: «عن عبد الرحمن بن محمد الفزاز بالإسناد، عن مشيخة أهل المدينة أن فَرُّوخاً أبا عبد الرحمن أبا ربيعة خرج في

(١) صفة الصفوة (٢/ ١٠٤).
(٢) سير أعلام النبلاء (٦/ ٩٣).
(٣) روضة العقلاء لابن حبان ص٢٣٢ والتمهيد (٢٣/ ١٧٨).
(٤) سير أعلام النبلاء (٦/ ٩٢).
(٥) المصدر السابق.

البعوث إلى خُراسان أيام بني أمية غازياً وربيعة حَمْلٌ في بطن أُمه وخلف عند زوجته أم ربيعة ثلاثين ألف دينار فقدم المدينة بعد سبع وعشرين سنة وهو راكبٌ فرساً وفي يده رمح فنزل عن فرسه ثم دفع الباب برمحه فخرج ربيعة فقال له: يا عدو الله أتهجم على منزلي؟ فقال: لا وقال فروخ: يا عدو الله أنت رجل دخلت على حرمي، فتواثبا وتلبّب كل واحدٍ منهما بصاحبه حتى اجتمع الجيران فبلغ مالك بن أنس والمشيخة فأتوا يعينون ربيعة فجعل ربيعة يقول: والله لا فارقتك إلا عند السلطان، وجعل فرّوخ يقول: والله لا فارقتك إلا عند السلطان وأنت مع امرأتي، وكثر الضجيج فلما بصروا بمالك سكت الناس كلُّهم فقال مالك: أيها الشيخ لك سعة في غير هذه الدار، فقال الشيخ: هي داري وأنا فروخ مولى بني فلان، فسمعت امرأته كلامه فخرجت فقالت: هذا زوجي، وهذا ابنه الذي خلّفه وأنا حامل به فاعتنقا جميعاً وبكيا، فدخل فروخ المنزل فقال: هذا ابني؟ قالت: نعم، قال: فأخرجي المال الذي عندك وهذه معي أربعة آلاف دينار فقالت: المال قد دفنته وأنا أخرجه بعد أيام.

فخرج ربيعة إلى المسجد وجلس في حلقته وأتاه مالك بن أنس والحسن بن زيد وابن أبي علي اللهبي والمساحقي وأشراف المدينة وأحدق الناس به فقالت امرأته: اخرج فَصَلّ في مسجد رسول الله ﷺ فخرج فنظر إلى حلقةٍ وافرة فأتاه فوقف عليه ففرَّجُوا له قليلاً ونكس ربيعة رأسه يوهمه أنه لم

يره فقال: من هذا الرجل؟ فقالوا: هذا ربيعة بن أبي عبد الرحمن، فقال أبو عبد الرحمن: لقد رفع الله ابني فرجع إلى منزله فقال لوالدته: لقد رأيت ولدك في حالةٍ ما رأيت أحداً من أهل الفقه والعلم عليها، فقالت أمه: فأيّما أحبّ إليك ثلاثون ألف دينار أو هذا الذي هو فيه من الجاه؟ قال: لا والله إلا هذا، قالت: فإني أنفقت المال كله عليه قال: فوالله ما ضيَّعته»[١].

وهكذا تنفقُ المرأةُ المسلمةُ الأموالَ الطائلةَ لينالَ ولدها شرف العلم ولكي يجلس ذلك المجلس الذي تفخر كل أم بأن ولدها يجلسُ بين يديه أمثال الإمام مالك بن أنس وغيره من أشراف المدينة. وهذا يُذكرنا بما جاء في فضل العلم أن المال يذهب ويفنى ولكن العلم باق ببقاء عطاء العالم، كما أنَّ صنيع هذه المرأة المسلمة التي صنعت عالماً من أئمة العلماء المجتهدين جديرٌ بأن نسجل هذا الصنيع بمداد من نور عبر صفحات «نساء صنعن علماء»، فرحم الله أم ربيعة وجازها عن الإسلام خير فقد صنعت من وليدها عالماً ينفع دينه. ويقول عنه مالك بن أنس بعد وفاته: «ذهبت حلاوة الفقه منذ مات ربيعة بن أبي عبد الرحمن»[٢] رحم الله تلك الأم وصدق من قال: [الكامل]

---

(١) صفة الصفوة (٢/ ١٠٢ ـ ١٠٣).

(٢) صفة الصفوة (٢/ ١٠٥) سير أعلام النبلاء (٧/ ١٠٧ ـ ١٣٤).

الأم مـــدرســـةٌ إذا أَعْـــدَدْتَـــهـــا
أعـددت شـعـبـاً طـيـبَ الأعـراقِ
الأمُّ روضٌ إن تـعـهـده الـحـيـا
بـــالـــري أورق أيـــمـــا إيـــراقِ
الأم أســـتـــاذ الأســـاتـــذة الأُلَـــى
شَـغَـلَـتْ مـآثـرهـم مـدى الآفـاقِ

٩ ـ الأوزاعي(*)

هو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي إمام أهل الشام وفقيههم، أبو عمرو صاحب المذهب المشهور الذي ينتسب إليه الأوزاعية قديماً[١]. وقد ولد في بعلبك ونشأ بالبقاع ونقلته أمه إلى بيروت فعاش بها وقد كان عالماً فقيهاً.

قال عنه ابن كثير: «تأدب بنفسه فلم يكن من أبناء الملوك والخلفاء والوزراء والتجار وغيرهم، لا نرى أعقل منه ولا أورع ولا أعلم ولا أفصح ولا أوقر ولا أحلم ولا أكثر صمتاً منه، ما تكلم بكلمة إلا كان المتعين على من سمعها من جلسائه أن يكتبها عنه»[٢].

(*) طبقات ابن سعد (٧/ ٤٨٨)، تاريخ خليفة (٤٢٨) تاريخ الإسلام (٦/ ١٢٥) طبقات المحدثين ترجمة (٥١٠) وشذرات الذهب (١/ ٢٤١) تهذيب التهذيب (٦/ ٢٣٨ ـ ٢٤٢) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٢٩) النجوم الزاهرة (٢/ ٣٠) طبقات الحنابلة (١/ ١٧١) سير أعلام النبلاء (٧/ ١٠٩).

(١) النجوم الزاهرة (٢/ ٣٠).

(٢) البداية والنهاية (١٠/ ١١٥).

أدرك خلقاً من التابعين وغيرهم وحدَّث عنه جماعات من سادات المسلمين كمالك بن أنس والثوري وأثنى عليه غير واحد من الأئمة.

قال مالك: الأوزاعي: إمام يقتدى به[١].

وقال محمد بن سعد: كان خيراً فاضلاً مأموناً كثير العلم والحديث والفقه[٢].

قال الوليد بن مسلم: «ما رأيت أكثر اجتهاداً في العبادة من الأوزاعي»[٣].

قال أبو إسحاق الفزاري: «ما رأيت مثل رجلين الأوزاعي والثوري، فأما الأوزاعي فكان رجل عامة والثوري كان رجل خاصة، ولو خُيِّرتُ لهذه الأمة لاخترت لها الأوزاعي ـ يريد للخلافة ـ لأنه كان أكثر توسعاً وكان والله إماماً إذ لا نصيب اليوم إماماً، ولو أن الأمة أصابتها شدة والأوزاعي فيهم لرأيت لهم أن يَفْزَعوا إليه»[٤].

وكذلك قال أحمد بن حنبل: «دخل سفيان الثوري والأوزاعي على مالك فلما خرجا: قال أحدهما أكثر علماً من صاحبه ولا يصلح للإمامة والآخر يصلح للإمامة يعني

(١) سير أعلام النبلاء (٧/ ١١٢).
(٢) سير أعلام النبلاء (٧/ ١٠٩).
(٣) شذرات الذهب (١/ ٢٤٣).
(٤) سير أعلام النبلاء (٧/ ١١٣).

الأوزاعي»[١].

قال الوليد بن مسلم: قال: «ما كنت أحرص على السماع من الأوزاعي حتى رأيت رسول الله في المنام والأوزاعي إلى جنبه فقلت: يا رسول الله عمن أحمل العلم قال: عن هذا وأشار إلى الأوزاعي»[٢]. هكذا كان الإمام مشهوراً بالخير والعلم والفضل. قال إسماعيل بن عياش: «سمعت الناس في ستة أربعين ومئة يقولون الأوزاعي اليوم عالم الأمة»[٣].

وكيف لا يكون عالم الأمة في زمانه وقد نصر سنة المصطفىﷺ وحدَّث عن خير البشر محمدﷺ :

لا شيء أحسن من قال الرسول وما
أجلَّ من سندٍ عن كل مشتهر
ومجلسٌ بين أهل العلم جاد بما
حلا من الدر أو أحلى من الدُّرر[٤]

وقال الخريبي: «كان الأوزاعي أفضل أهل زمانه»[٥].

وقال الشافعي: «ما رأيت أحداً أشبه فقهه بحديثه من

(١) سير أعلام النبلاء (٧/ ١١٢).
(٢) سير أعلام النبلاء (٧/ ١١٨).
(٣) المصدر السابق (٧/ ١١١).
(٤) الأبيات من بحر الطويل.
(٥) المصدر السابق.

الأوزاعي»[١].

قال عبد الرحمن بن مهدي: «إنما الناس في زمانهم أربعة: حماد بن زيد بالبصرة والثوري بالكوفة ومالك بالحجاز والأوزاعي بالشام»[٢].

وقال بقية بن الوليد: «إنا لنمتحن الناس بالأوزاعي فمن ذكره بخير عرفنا أنّه صاحبَ سنة، وقال العِجْلِي: «شامي ثقة من خيار المسلمين»[٣].

وقال الوليد بن مُسْلم: «رأيتُ الأوزاعي يَثْبُت في مُصلاه يذكر الله حتى تطلُع الشمس ويُخبرنا عن السلف أن ذلك كان هديهم فإذا طلعت الشمس قام بعضهم إلى بعض فأفاضوا في ذكر الله والتفقه في الدين»[٤].

وعن سفيان الثوري: «أنه لما بلغه مقدم الأوزاعي خرج حتى لقيه بذي طوى فحل سفيان رأس البعير عن القطار ووضعه على رقبته، وكان إذا مرّ بجماعة قال: الطريق للشيخ»[٥].

قال النووي رحمه الله: «وقد أجمع العلماء على إمامةِ الأوزاعي

(١) تهذيب التهذيب (٦/ ٢٣٨ ـ ٢٤٢) البداية والنهاية (١٠/ ١١٦).
(٢) سير أعلام النبلاء (٧/ ١١٣).
(٣) تهذيب التهذيب (٦/ ٢٣٨).
(٤) سير أعلام النبلاء (٧/ ١١٤).
(٥) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٣٠٠).

وجلالته وعُلو مرتبته وكمال فضله، وأقاويل السلف رحمهم الله كثيرة مشهورة مصرِحة بورعه وزهده وعبادته وقيامه بالحق وكثرة حديثه وغزارة فقهه وشدة تمسكه بالسنة وبراعته في الفصاحة وإجلال أعيان أئمة عصره من الأقطار له واعترافهم بمرتبته»[١].

ومن أقوال الأوزاعي: «من أكثر ذكر الموت كفاه اليسير ومن عرف منطقه من عمله قلّ كلامه»[٢].

قال مروان الطّاطَرِي: قال الأوزاعي: «من أطال قيام الليل هوّن الله عليه وقوفَ يوم القيامة»[٣].

قال الوليد بن مَزْيَد: قال الأوزاعي: «إذا أراد الله بقومٍ شراً فتح عليهم الجَدَل ومنعهم العمل»[٤].

وقال أبو مُسهر: «وكان الأوزاعي رحمه الله يحيى الليل صلاة وقرآناً وبكاءً، وأخبرني بعض إخواني من أهل بيروت أن أمه كانت تدخلُ منزل الأوزاعيّ وتتفقد موضِع مُصَلّاة فتجده رطْباً من دموعه في الليل»[٥].

قال الذهبي: «قال العباس بن الوليد: ما رأيتُ أبي

---

(١) تهذيب الأسماء والصفات (١/ ٢٢٩).
(٢) الحلية (٦/ ١٤٣).
(٣) سير أعلام النبلاء (٧/ ١١٩).
(٤) سير أعلام النبلاء (٧/ ١٢١).
(٥) سير أعلام النبلاء (٧/ ١٢٠).

يتعجب من شيء في الدنيا تعجبه من الأوزاعي، فكان يقول سبحانك تفعل ما شاء كان الأوزاعي يتيماً فقيراً في حَجْر أُمّه تنقله من بلد إلى بلد، وقد جرى حكمك فيه أن بلَّغتَه حيث رأيته، يا بني عجزت الملوك أن تؤدب نفسها وأولادها، أدب الأوزاعي في نفسه ما سمعت منه كلمةً قطُّ فاضلةً إلا احتاج مستمعها إلى إثباتها عنه ولا رأيته ضاحكاً قط حتى يُقهقِه، ولقد كان إذا أخذ في ذكر المعاد أقول في نفسي: أتُرى في المجلس قلب لم يبكِ؟»[1].

هكذا صنعت تلك المرأة المسلمة في ظل ظروفها القاسية عالماً فقيهاً عابداً زاهداً واعظاً لتنضمَّ بجداره لنساء صنعن علماء وصدق من قال عن المرأة المسلمة: [البسيط]

خَلَّفْتِ جيلاً من العلماء سِيرتهم
تضوعُ بينَ الوَرَى روحاً وريحاناً
كانت علومهموا بِرّاً ومَرْحمة
كانت سياستهم عدلاً وإحساناً

(١) سير أعلام النبلاء (٧/ ١١٠).

١٠ ـ شعبة بن الحجاج(*)

الإمام الحافظ أمير المؤمنين في الحديث عالم أهل البصرة وشيخُها أبو بسطام.

قال عنه الذهبي: «كان أبو بسطام إماماً ثبتاً حجة، ناقداً جهبذاً، صالحاً، زاهداً، قانعاً بالقوت، رأساً في العلم والعمل، منقطع القرين وهو أول من جَرَّح وعَدَّل أخذ عنه هذا الشأن يحيى بن سعيد القطان وابن مهدي وطائفة وكان سفيان الثوري يخضع له ويُجِلُّه ويقول: شعبةُ أمير المؤمنين في الحديث»(١).

وقال الشافعي: «لولا شعبة لما عُرف الحديث بالعراق»(٢).

(*) طبقات ابن سعد (٧/ ٢٨٠) تاريخ بغداد (٩/ ٢٥٥ ـ ٢٦٦) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٤٤ ـ ٢٤٦) تهذيب التهذيب (٤/ ٣٣٨ ـ ٣٤٦) سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٠٢ ـ ٢٢٩).

(١) سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٠٦).

(٢) المصدر السابق.

وقال أبو حنيفة: «نِعْمَ حشو المِصْرَ هُوَ»[١]. وكان الإمام أحمد بن حنبل يقول: «كان شعبة أمة وحده في هذا الشأن ـ يعني في الرجال وبصره بالحديث وتثبته وتنقيته للرجال»[٢].

وقال ابن معين: «كان شعبة في غاية الزهد والورع والتقشف والحفظ وحسن الطريقة»[٣].

وكان عابداً صادقاً مخلصاً في عبادته، قال أبو المظفر عبد السلام بن مطهر: «ما رأيت من الفقهاء مثل شعبة أبين ولا أمعن في العبادة منه»[٤].

ولقد رأى شعبة أن السنة النبوية التي يحملها وينشر تدعو للتقشف والتقلل من الطعام والشراب والاقتصاد في الإنفاق. قال عبد الرحمن بن مهدي: «ما رأيت أشد تقشفاً من شعبة»[٥].

وكان ينصح طلبته بالزهد، قال تلميذه قراد أبو نوح: رأى عليّ شعبة قميصاً فقال: بكم أخذت هذا؟ قلت: بثمانية دراهم قال: «ويحك أما تتقي الله تلبس قميصاً بثمانية ألا اشتريت قميصاً بأربعة وتصدقت بأربعة»[٦].

---

(١) تاريخ بغداد (٩/ ٢٥٥).
(٢) العلل لابن حنبل (١/ ١١١).
(٣) البداية والنهاية (١٠/ ١٣٣).
(٤) مقدمة الجرح والتعديل ص١٧٢.
(٥) العقد الفريد لابن عبد ربه (٣/ ١٧٠).
(٦) حكايات أبي بسطام للبغوي لوحة ١ب.

ويقول سليمان بن حرب: «كان شعبة شيخاً كثير الصدقة»[١].

وقد سُميّ لشدة صدقته على الفقراء بأبي الفقراء وأمهم[٢]. وكان من أرق الناس قلباً فربما مر به السائل فيدخل إلى بيته فيعطيه ما أمكنه فإذا لم يجد شيئاً لا يزال ينظر إليه حتى يغيب عنه[٣].

وكان يستدين ليعطي مسكيناً. قال يحيى بن سعيد القطان: «ما رأيت أحداً أشد حباً للمساكين من شعبة وكنت أكون عنده فيجيء السائل فلا يكون معه شيء فيقول لي: يحيى معك شيء؟ فأقول نعم، فأعطيه فيعطيه السائل ثم يرد عليّ فأقول: يا أبا بسطام؟ إيش هذا فيقول خذها»[٤].

وكان كريم النفس سخي اليد يقول تلميذه أبو الوليد الطيالسي: «ما رأيت أسخى من شعبة»[٥].

فقد كان بصدق رقيق القلب محباً للمساكين كريم اليد والعطاء، وكل هذا بدافع من العلم الذي جعله يعلو في عيون معاصريه.

---

(١) تاريخ بغداد (٩/ ٢٦١).
(٢) تهذيب الكمال: للمزي.
(٣) تاريخ بغداد (٩/ ٢٦١).
(٤) حلية الأولياء (٧/ ١٤٦).
(٥) مقدمة الجرح والتعديل ص١٧٣.

عن مسلم بن قتيبة: «قدمت من البصرة فأتيت الكوفة، فأتيت سفيان الثوري فقال لي: من أين أتيت؟ قلت: من البصرة قال: ما فعل أستاذنا شعبة»[١].

قال عمر بن هارون: «كان شعبة يصوم الدهر كله»[٢].

قال يحيى بن سعيد: «ما رأيت أحداً قط أحسن حديثاً من شعبة»[٣].

وقال أبو بحر البكراوي: «ما رأيت أحداً أعبدَ لله من شعبة، لقد عبد الله حتى جفَّ جلدُه على عظمه واسودَّ»[٤].

قال أحمد بن حنبل: «شعبة أثبت من الأعمش في الحكم، وشعبة أحسن حديثاً من الثوري قد روى عن ثلاثين كوفياً لم يلقهم سفيان»[٥].

قال النضر بن شُمَيْل: «ما رأيت أرحمَ بمسكين من شعبة»[٦].

ومن أقوال ذلك العالم الفذ قال أبو قطن: «سمعت شعبة بن الحجاج يقول: ما شيء أخوف عندي من أن يُدخلني

(١) شعبة بن الحجاج لعبد الملك بكر القاضي ص١١٩.
(٢) سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٠٩).
(٣) المصدر السابق.
(٤) تهذيب الكمال (٥٨٤).
(٥) سير أعلام النبلاء (٧/ ٢١٠).
(٦) سير أعلام النبلاء (٧/ ٢١١).

النار من الحديث»[١].

وقال ابن مهدي: سمعت شعبة يقول: «إن هذا الحديث يصُدُّكم عن ذكر الله وعن الصلاة وعن صلة الرحم فهل أنتم منتهون»[٢].

وروي عن عبد القُدُّوس بن محمد الحبحابي: سمعت أبي يقول: «لَمَّا مات شعبة أُريتُه بعد سبعة أيام وهو آخذ بيدِ مِسْعَر وعليهما قميصاً نور فقلت: يا أبا بسطام ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي قلت: بماذا؟ قال: بصدقي في رواية الحديث ونشري له وأدائي الأمانة فيه ثم انشأ يقول: [الطويل]

حَبَانِي إلهي في الجِنَانِ بقُبَّةٍ
لها ألفُ بابٍ من لُجَينٍ وجوهرِ
شَرَابِي رحيقٌ في الجِنَانِ وحِلْيَتي
من الذهبِ الإبْرِيْز والتاج أزهرِ
ونَقْلِي لِثَامُ الحورِ واللَّهُ خَصَّنِي
بقصرِ عَقِيْقٍ تُرْبةُ القصرِ عَنْبَرِ
وقال لي الرحمنُ يا شعبةَ الذي
تَبَحَّرَ في جَمْعِ العُلوم فأكثَرِ
تَنَعَّمْ بقُرْبي إنني عنك راضِي
وعن عبدِيَ القَوَّام بالليل مِسْعَرِ

(١) سير أعلام النبلاء (٧/ ٢١٣).
(٢) المصدر السابق.

وهكذا كان شعبة عالماً بالحديث بذل ماله ونفسه للحديث النبوي فنال ذلك الفضل من الثناء الجميل في حياته وبعد مماته. ولقد كان للأم المسلمة أم شعبة أكبر الأثر في اهتمامه بالحديث النبوي الذي كانت ـ رحمها الله ـ لها إلمام به فهو القائل عنها: قالت أمي لهشام بن حسان: «عن من يحدث محمد بن سيرين من أصحاب النبيﷺ؟ قال: عن ابن عمر وأبي هريرة قالت: وسمع منهم؟ قال: نعم»[١].

وكانت تَحُثُّ شعبة على طلب العلم وتدله على مواطنه، وفي هذا الصدد يقول: «قالت لي أمي: ها هنا امرأة تُحدث عن عائشة فاذهب فاسمع، منها فذهبت فسمعت منها ثم قلت لها: قد سمعت منها: قالت: سلَّمك الله قال أبو الحسن: هذه المرأة يُقال لها شُميسة أم سلمة»[٢].

وقد كان لهذه الأم الدور الرائد في تربية ذلك العالم الفذ الذي صنعته تلك الأم الفاضلة التي وجهته لحمل الحديث وسماعه حتى من النساء، كما أننا نلاحظ أنه سمع من تلك المرأة التي قيل أن اسمها شُميسة، وهذا النمط من النساء العالمات بالحديث كثير عبر عصور الإسلام المختلفة[*].

وهكذا تعلمت المرأة المسلمة وعلَّمت وصنعت علماء عبر

(١) طبقات ابن سعد (٧/ ١٥٣).
(٢) تاريخ واسط لجشل (١٢١).
(*) انظري كتابي نساء لها تاريخ «طبعة دار المعرفة» بيروت.

العصور وكانت بعون الله خير موجه وخير صانع لعلماء المسلمين، وكانت مبعث كل شيء من نفوس الأبناء، والأمر في ذلك ما قال رافع بن هُزيم: [الوافر]

فلو كنتم لِمُكْيِسَةٍ لكاست
وكَيْسُ الأمِ يُعرَفُ في البنينا

١١ ـ عمر بن عبد العزيز

حفيد الفاروق عمر بن الخطاب وخامس الخلفاء الراشدين أبو حفص عمر بن عبد العزيز وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، وقد صاغت هذه الأم للأمة الإسلامية عمر بن عبد العزيز الذي قال عنه سفيان الثوري: «الخلفاء خمسة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز» وقال: «لا أوافق رأي أحد أحب إليّ من عمر بن عبد العزيز لأنه كان إمام هدى»(١).

وقال أحمد بن حنبل: «يُروى في الحديث(*) أن الله تبارك وتعالى يبعث على رأس كل مائة عام من يصحح لهذه الأمة دينها، فنظرنا في المائة الأولى فإذا هو عمر بن عبد العزيز ونظرنا إلى المائة الثانية فإذا هو الشافعي»(٢).

---

(١) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص٧٣.

(*) أخرجه أبو داود في السنن رقم (٤٢٩١) باب ما يُذكر في قرن المائة وأخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٥٢٢) والبيهقي في معرفة السر والآثار (ص٥٢) والخطيب في تاريخه (٩/ ٦١) وانظر الصحيحة للشيخ الألباني (٥٩٩) (١/ ١٥٠).

(٢) صفة الصفوة (٢/ ٨٠) تاريخ بغداد (٢/ ٦٢) البداية والنهاية (١٠/ ٢٥٣).

وقال عنه أيضاً: «إذا رأيت الرجل يحب عمر بن عبد العزيز ويذكر محاسنه وينشرها فاعلم أن من وراء ذلك خيراً إن شاء الله»[١].

وقد روى عمر بن عبد العزيز عن خلق كثير من كبار التابعين منهم: سعيد بن المسيب وعبد الله بن إبراهيم بن فارط وسالم وأبي سلمة وغيرهم[٢].

وأسند عمر بن عبد العزيز عن عبد الله بن عمر وأنس بن مالك وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب والسائب بن يزيد وغيرهم[٣].

وعن عبد السلام مولى مسلمة بن عبد الملك قال: «بكى عمر بن عبد العزيز فبكت فاطمة فبكى أهل الدار لا يدري هؤلاء ما أبكى هؤلاء، فلما تجلَّت عنهم العبرة قالت له فاطمة: بأبي أنت يا أمير المؤمنين مم بكيت؟ قال: ذكرت منصرف القوم من بين يدي الله ﷻ فريق في الجنة وفريق في السعير»[٤].

وقال: «كل يومٍ أخافه دون يوم القيامة فلا وقاني الله شره»[٥].

---

(١) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز ص٧٤.
(٢) صفة الصفوة (٢/ ٨٩).
(٣) المصدر السابق.
(٤) صفة الصفوة (٢/ ٨٥).
(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص١٣٨.

وقال مالك بن دينار: «لما وُلّي عمر بن عبد العزيز رحمه الله قالت رعاة الشاة في ذروة الجبال: من هذا الخليفة الصالح الذي قد قام على الناس؟ فقيل لهم: وما علمكم بذلك؟ قالوا: إنا إذا قام على الناس خليفة صالح كفَّت الذئاب والأُسْدُ عن شأننا»[١].

وقد كان من أعلم الناس بأمور سياسة الخلق، فقد قال له ابنه عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز يا أبتِ ما يمنعك أن تمضي لما تريد من العدل؟ فوالله ما كنت أباً لي لوْ غَلَتْ بي وبك القدور في ذلك، قال: يا بُني إنما أروض الناس رياضة الصعب أن لأريد أن أحيي الأمور من العدل فأوخز ذلك حتى أخرج معه طمعاً من طمع الدنيا فينفروا لهذه ويسكنوا لهذه»[٢].

وقال رحمه الله: «ما طاوعني الناس على ما أردت من الحق حتى بسطت لهم من الدنيا شيئاً»[٢].

وهكذا كان عمر بن عبد العزيز خير إمام وحاكم عرفته الأمة الإسلامية بعد خلفاء رسول الله ﷺ، جَدَّد الله به شباب الإسلام ونشر به العدل في ربوع المعمورة وشهد له علماء الإسلام بالفضل مثل ما تقدم من شهادة الثوري وأحمد بن حنبل.

---

(١) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز ص٩٧.

(٢) المصدر السابق.

ولقد كان ذلك العالم الحاكم العادل صنعه نسائية فقد ربته أمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، ويكفيها فخراً أنها من نسل الفاروق وأنها ابنة بائعة اللبن التي خلَّد التاريخ ذكرها(*). وقد كانت هذه الأم تنزع به إلى أخلاق جدِّه الفاروق فصنعت بتربيتها وتوجيهها عالِماً عابداً وحاكماً عادلاً بكاه عند موت أهل الذِمة كما بكاه المسلمون، إنه عمر بن عبد العزيز الذي قال فيه إمبراطور الروم (ليو الثالث) بعد أن بكاه بكاءاً مراً قال: «مات والله ملك عادل ليس لعدله مثيل والله لقد كان حَرِيّاً أن يعجل به فأهل الخير لا يلبثون مع أهل الشر إلا قليلاً»(١).

ولله در من قال فيه: [الكامل]

إن الـذي بـعـث الـنـبـي مـحـمـداً
جـعـل الـخـلافـة فـي الإمـام الـعـادل
قـد نـال عـدلـك مـن أقـام بـأرضـنـا
فـإلـيـك حـاجـة كـل وفـدٍ راحـل

ولله در من قال فيه: [البسيط]

أقـول لـمّـا نـعـى الـنـاعـون لـي عُـمـرا
لا يـبـعـدون قـوام الـعـدل والـديـن

(*) انظري ترجمتها في كتابي (نساء لها تاريخ) طبعة دار المعرفة بيروت.
(١) ترطيب الأفواه لسيد حسين عفاني (١/ ١٨٤).

لـم تـلـهـه عـمـره عـيـن يـفـجـرهـا
ولا الـنـخـيـل ولا ركـض الـبـراذيـن
قـد غـادر الـقـوم فـي الـذي لـحـدوا
بـديـر سـمـعـان قـسـطـاس الـمـوازيـن

رحم الله عمر بن عبد العزيز ورحم الله أمه التي صنعت للأمة خير حاكم عرفته، فكانت وبجداره من «النساء الذين صنعن عُلماء».

١٢ ـ البخاري(*)

هو محمد بن إسماعيل البخاري إمام المحدثين وصاحب أصح كتاب بعد كتاب رب العالمين وحافظ سنة خير الخلق سيدنا محمدﷺ.

قال عَبدان: «ما رأيتُ بعيني شاباً أبصر من هذا وأشار إلى محمد بن إسماعيل»(١).

وعن حاشد بن إسماعيل قال: «لما قَدِم محمد بن إسماعيل على سليمان بن حرب نظر إليه سليمان فقال هذا يكون له يوماً صوتٌ»(٢).

وعن عمرو بن عليٍّ الفلَّاس قال: «حديث لا يعرفه محمد بن إسماعيل ليس بحديث»(٣).

(*) تاريخ بغداد (٢/ ٢٤)، تهذيب الكمال (١١٧١) ومقدمة الفتح، سير أعلام النبلاء (١٢/ ٣٩١) شذرات الذهب (٢/ ١٣٤).

(١) تاريخ بغداد (٢/ ٢٤).

(٢) مقدمة الفتح ص٤٨٢.

(٣) تهذيب الكمال (١١٧١)، تاريخ بغداد (٢/ ١٨).

وعن عبد الله بن أحمد بن حنبل: سمعت أبي يقول: «ما أخرجت خُراسان مثل محمد بن إسماعيل»[١].

وقال حاشد بن إسماعيل: «كنت بالبصرةِ فسمعتُ قُدُوم محمد بن إسماعيل فلما قدِم قال بُندار: اليوم دخل سيدُ الفقهاء»[٢]. وعن محمد بن بشَّار قال: «لم يدخل البصرة رجل أعلم بالحديث من أخينا أبي عبد الله قال: فلما أراد الخروج ودّعه محمد بن بشار وقال: يا أبا عبد الله موعدنا الحشر لا نلتقي بعدُ»[٣].

وعن يعقوب بن إبراهيم الدَّوْرَقِيّ يقول: «محمد بن إسماعيل فقيه هذه الأمة»[٤].

وعن أبي جعفر المُسْنِدي قال: «حُفَّاظ زماننا ثلاثة محمد بن إسماعيل وحاشد بن إسماعيل ويحيى بن سهل»[٥].

وعن أبي الطيب حاتم من منصور الكِشّي قال: «محمد بن إسماعيل آيةٌ من آيات الله في بصره ونفاذه من العلم»[٦].

وقال حاشد بن إسماعيل سمعت قتيبة يقول: «مَثَلُ

(١) تاريخ بغداد (٢/ ٢١) وسير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٢١).
(٢) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٢٢).
(٣) المصدر السابق (١٢/ ٤٢٣).
(٤) مقدمة الفتح ٤٨٣.
(٥) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٢٤).
(٦) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٢٧).

محمدُ بن إسماعيل عند أصحابه في صدقه وورعه كما كان عُمر في الصحابة»[١].

وقال محمد بن يوسف الهمذاني: «كنا عند قتيبة بن سعيد فجاء رجل شعراني يُقال له أبو يعقوب فسأله عن محمد بن إسماعيل، فنكس رأسه ثم رفعه إلى السماء فقال: يا هؤلاء نظرتُ في الحديث ونظرت في الرأي وجالست الفقهاء والزُهاد والعُباد ما رأيت منذ عَقِلْتُ مثل محمد بن إسماعيل»[٢].

وقال محمد بن إسحاق بن خزيمة: «ما رأيتُ تحت أديم السماء أعلم بحديث رسول الله ﷺ وأحفظ له من محمد بن إسماعيل»[٣].

قال مُسَبِّح بن سعيد: «كان محمد بن إسماعيل يختم في رمضان في النهار كل يوم ختمه ونقوم بعد التراويح كل ثلاث ليالٍ بختمه»[٤].

وقال سليم بن مجاهد: «ما رأيتُ بعيني منذ ستين سنة أفقه ولا أورع ولا أزهد في الدنيا من محمد بن إسماعيل».

وقد صنف البخاري العديد من المصنفات ولكن رفع الله ذكره بتأليفه (صحيح البخاري) الذي جمع فيه أصح الأحاديث

---

(١) مقدمة الفتح (٤٨٣).
(٢) مقدمة الفتح (٤٨٣).
(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٧٠/ ١).
(٤) تاريخ بغداد (٢/ ١٢) وتهذيب الكمال (١١٧٠).

الواردة عن رسول الله ﷺ، وقد أثنى عليه الشعراء فقال أحدهم: [المتقارب]

صحيح البُخاريّ لو أنصفُوهُ
لما خُطَّ إلاَّ بماءِ الذَّهبْ

هو الفرقُ بين الهُدى والعَمى
هو السُّدُّ بين الفَتَى والعَطَبْ

أسانيدُ مثلُ نجومِ السَّمَا
أمَام مُتونٍ كمثلِ الشُّهُب

به قَامَ ميزانُ دينِ الرسولْ
ودَانَ به العُجْم بعد العَرَبْ

حِجابٌ من النَّارِ لا شكَّ فيه
تَمَيَّز بين الرِّضى والغَضَبْ

وسِتْرٌ رقيقٌ إلى المصطفى
ونضٌّ مبينٌ لكشف الرِّيَبْ

فيا عالِماً أجمع العالِمون
على فضل رُتْبَتِه في الرِّيَبْ

سبقت الأئمة فيما جَمعَت
وفُزْتَ على رغمهم بالقَصَبْ

نفيت الضعيفَ مِن النَّاقلين
ومَنْ كان مُتَّهَماً بالكذب

وأبرزت في حُسن ترتيبه
وتبويبه عَجباً للعجب

فـأعـطـاك مـولاك مـا تـشـتـهـيـه
وأجـزل حَـظَّـك فـيـمـا وَهَـبْ[١]

ومن أقوال هذا العالم الجليل، قال بكر بن منير: «سمعت أبا عبد الله البخاري يقول أرجو أن ألقى الله ولا يُحاسبني أني أغتبت أحداً»[٢].

وقال: «ما أردت أن أتكلم بكلام فيه ذكر الدنيا إلا بدأت بحمدِ الله والثناء عليه»[٣].

وروى الخطيب بإسناده عن الفِرَبْرِيِّ قال: «رأيت النبيﷺ في النوم فقال لي أين تُريد؟ فقلت: أريد محمد بن إسماعيل البخاري فقال: اقْرَأْهُ مني السلام»[٤].

ذلك العالم الجليل من الذي صنعته؟ إنها أمه المسلمة التقية فقد نشأ في حجر أمه يتيماً، وكانت عابدة صاحبة كرامات ومما جاء في كرامتها ـ رحمها الله ـ ما رواه اللالكائي في شرح السنة في باب كرامات الأولياء منه: «أن محمد بن إسماعيل ذهبت عيناه في صغره فرأت والدته الخليل إبراهيم في المنام فقال لها: يا هذه قد ردّ الله على ابنك بصره بكثرة دعائك قال: فأصبح وقد رد لله عليه بصره»[٥].

---

(١) الأبيات في تاريخ ابن كثير (١١/ ٢٧، ٢٨).
(٢) تاريخ بغداد (٢/ ١٣).
(٣) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٤٥).
(٤) تاريخ بغداد (٢/ ١٠) تهذيب الكمال (١١٧٠) مقدمة الفتح (٤٩٠).
(٥) مقدمة الفتح (٤٨٠).

وهكذا ربته هذه المسلمة على حب الحديث وطلب العلم في صغِره ومما جاء في ذلك قال البخاري: «أُلهمت حفظ الحديث وأنا في الكُتَّاب... ولما طعنت في ثماني عشرة جعلت أُصنف في قضايا الصحابة والتابعين وأقوالهم»[١].

وهكذا كانت الأم المسلمة مُربية لأجيال متوالية من العلماء الذين قدَّر الله لهم أن تكفلهم نساء، ليؤكد التاريخ أن المرأة المسلمة قادرة دوماً وعبر كل العصور أن تكون موجهة ومعلمة وكافلة لعلماء ورجال وأبطال ينصرون السنة والإسلام في سيرتهم وفي أقوالهم وفي حياتهم رحم الله تلك الكوكبة من العلماء. الذين خلَّد التاريخ سيرتهم العطرة ونقش حروف أسمائهم بماء من ذهب يُضيء لنا بنوره وبريقه عبر العصور:

وصدق من قال في وصفهم: [الكامل]

في أولِ الأحزابِ أيضاً ذكرُهُم
هُم خيرِ خلقِ الله من إنسانِ
ولوَاؤهم بيد الرسول عِصَابَةُ
الإسلام أهلُ العلمِ والإيمان
والتابعونَ لهم بإحسانٍ على
طبقاتهم في سائر الأزمان
أهلُ الحديث جميعهمْ وأئمة
الفتوى وأهلُ حقائقِ العِرْفَانِ

(١) تاريخ بغداد (٢/ ٧).

١٣ ــ محمد بن عبد الرحمن الأوقص

هو قاضي مكة محمد بن عبد الرحمن الأوقص(*)، وقد كان فقيهاً عالماً وكان عنقه داخلاً في يده، وكان منكباه خارجين كأنهما زجان(**)، وكان هذا العيب والنقص في الخَلْقَة مما دفعه إلى أن يبحث عن الشرف والفضل فطلب العلم وكان ذلك بنصيحة أم عاقلة.

روى ابن عساكر عن أبي إسحاق الحربي قال:

«كان محمد بن عبد الرحمن الأوقص عنقه داخلاً في يده وكان منكباه خارجين كأنهما زجان فقالت له أمه: «يا بني لا تكون في قوم إلا كنت المضحوك منه المسخور به فعليك بطلب العلم فإنه يرفعك. قال: فطلب العلم فولى قضاء مكة عشرين سنة، قال: وكان الخصم إذا جلس بين يديه يرعد حتى يقوم»(١).

(*) الأوقص: الذي قصرت عنقه، لسان العر ب (٧/ ١٠٨).
(**) الزج: الحديدة التي في أسفل الرمح.
(١) تاريخ دمشق (٥٤/ ١٠٦) والفقيه والمتفقه للخطيب ص١٤٠، ١٤١.

قال يعقوب بن سفيان. «وسمعت شيوخ مكة يقولون لم يك في مكة مثل الأوقص»[١].

وقال بعض أهل مكة: «إن المهدي أمير المؤمنين حج سنة إحدى وستين ومائة فأمر بعمارة المسجد الحرام وأمر أن يُزاد في أعلاه ويُشترى ما كان في ذلك الموضع من الدور، وخلَّف الأموال عند الأوقص وهو يومئذٍ قاضي مكة، فاشترى الأوقص تلك الدور وما كان منها صدقة عزل ثمنه فاشترى لأهل الصدقة بثمن دورهم مساكن في فجاج مكة عوضاً من صدقاتهم»[٢].

وهكذا سجَّل التاريخ لتلك المرأة المسلمة العاقلة دورها الرائد في دفع ولدها لساحة العلم حتى يكمل ما به من نقص في الخَلق وصدقت حين قالت له: «عليك بالدين فإنه يُتم النقيصة ويرفع الخسيسة»[٣].

وعن ابن عباس قال: «كذاك هذا العلم يزيد الشريف شرفاً ويُجلس الملوك على الأسرة»[٤].

وصدق من قال: [الوافر]

رأيتُ العلمَ صَاحِبُهُ شريفٌ
وإن ولَدتهُ آباءٌ لِئَامُ

(١) أخبار مكة (٢/ ١٦٥).
(٢) المصدر السابق.
(٣) الفقيه والمتفقه ص١٤١.
(٤) المصدر السابق ص١٤١.

وَلَـيْـسَ يَـزالُ يَـرْفـعُـهُ إلـى أن
يُـعَـظَّـم قَـدْرهُ الـقـومُ الـكـرامُ

فرحم الله أم الأوقص حين دفعته لطلب العلم لكي ينال الفضل والرفعة في الدنيا والآخرة، فكانت عاقلة حقاً وكانت بذلك جديرة أن تكون من خير النساء «نساء صنعن علماء».

١٤ ـ أبي عبد الرحمن السُّلميّ(*)

هو أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن خالد بن سالم الأزدي، من أزدشَنُوءة وقد عُرِفَ بالسُّلَميّ وقد جاءته هذه النسبة من قِبَل جَدِّه لأمه أبي عمرو إسماعيل بن نُجَيْد السُّلَميّ، وكان من أكبر مشايخ وقته يسمع الحديث ورواه وأسنده توفي سنة ٣٦٦(١).

ولد أبو عبد الرحمن بنيسابور يوم الثلاثاء العاشر من جُمادى الآخر سنة خمس وعشرين وثلاثمائة، وكان والده شيخاً ورعاً زاهداً دائم المجاهدة، وأمه بنت الشيخ الكبير أبو عمرو بن نُجَيد(٢).

قال عنه الذهبي: «الإمام الحافظ المحدث شيخ خراسان وكبير الصوفية أبو عبد الرحمن النيسابوري الصوفي صاحب التصانيف»(٣).

(*) تاريخ بغداد (٢/ ٢٤٨)، سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢٤٧)، المنتظم ٢٥٧هـ (٨/ ٦)، طبقات الشافعية (٤/ ١٤٠).

(١) طبقات الصوفية ص٤٥٤.

(٢) سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢٤٧)، المنتظم ٢٥٧هـ (٨/ ٦).

(٣) سير أعلام النبلاء (٣).

ذكره الخطيب البغدادي فقال: «وكان صاحب حديث مجوداً جمع شيوخاً وتراجم وأبواباً وعمل دويرة للصوفية وصنف سناً وتفسيراً»[١].

وكان تفسيره محل إعجاب الكثيرين من العلماء، قال السّلميّ: «لما دخلنا بغداد قال لي الشيخ أبو حامد الإسفراييني: أريد أن أنظر في [حقائق التفسير] فبعث به إليه فنظر فيه وقال أريد أن أسمعه ووضعوا لي منبراً»[٢].

وقد أخذ أبو عبد الرحمن في السَّماع والكتابة عن شيوخه مبكراً، فقد ذكروا أنه كتب بخطه عن أبي بكر الصِّيغيّ سنة ٣٣٣ أي بعد مولده بثماني سنوات، ثم صَرَفَ همته إلى دراسة الحديث والتصوف فلقي شيوخ بنيسابور ثم رحل في الطلب إلى العراق والريّ وهَمَذان ومَرْو والحجاز[٣]. ثم ابتدأ التصنيف سنة نيف وخمسين وثلاث مئة وصنَّف في علوم القوم سبع مئة جزء في أحاديث النبيﷺ من جميع الأبواب والمشايخ، وغير ذلك ثلاث مئة جزء وكانت له تصانيفه مقبولة[٤].

وقد روى عن الأصم وتتلمذ على طائفة من شيوخ عصره

(١) تاريخ بغداد (٢/ ٢٤٨)، سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢٥٠).
(٢) سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢٤٨).
(٣) مقدمة محقق طبقات الصوفية ص٢٩.
(٤) سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢٤٧).

ومن أبرزهم: الحافظ الكبير أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني وله معه سؤالات جمعها من ألفاظه، قال الذهبي: «وللسُّلميّ سؤالات للدارقطني عن أحوال المشايخ الرواة سؤال عارف»(١). ومن شيوخه أيضاً أبو بكر القفَّال الشاشي الإمام الكبير محمد بن علي بن إسماعيل وكان شيخ الشافعية في وقته»(٢).

ثم روى ـ مع تقدمه ـ عن عبد الواحد بن أحمد الهاشميّ عن الحافظ الكبير أبي نُعيم الأصبهاني صاحب «حلية الأولياء، وطبقات الأصفياء»(٣).

وكان أبو عبد الرحمن يقول: «أستاذي في التصوف الجنيد، والفقه إبراهيم الحربي، وفي النحو ثعلب»(٤).

وكان كثير الرواية عن جده إسماعيل بن نجيد وقد رَوَى عن بكر بن خلف عن أبي عبد الرحمن السّلميّ قال: سمعت جدي إسماعيل بن نجيد يقول: «من لم تهذبك رؤيته فاعلم أنه غير مهذب»(٥).

وكما كان كثير الشيوخ كان كثير التلاميذ، فقد أخذ عنه

(١) المصدر السابق.
(٢) طبقات الشافعية (٣/ ٢٠١).
(٣) طبقات الصوفية ص٢٦٦.
(٤) المنتظم من ٢٥٧هـ (٦/ ٢٧٣).
(٥) المنتظم من ٢٥٧هـ (٧/ ٨٤).

العلم ورواه كثير من الناس على رأسهم الحافظ أبو بكر البيهقي صاحب «السنن» و«دلائل النبوة» و«مناقب الشافعي» وغيرها. وأبو محمد الجويني وهو الفقيه الشافعي الكبير والد إمام الحرمين الجُوَيْنِي وأبو القاسم القشيري صاحب «الرسالة القشيرية» و«الحاكم النيسابوري صاحب المستدرك على الصحيحين» و«تاريخ نيسابور»[١].

وقال عبد الغافر بن إسماعيل الفارسي عن السُّلَميّ: «شيخ الطريقة في وقته الموفق في جميع علوم الحقائق ومعرفة طريق التصوف وصاحب التصانيف المشهورة العجيبة، وَرَثَ التصوف من أبيه وجده وجمع من الكتب ما لم يسبق إلى ترتيبه حتى بلغ فهرس كتبه المئة أو أكثر حَدَّث أكثر، من أربعين سنة قراءة وإملاء وكتب الحديث بنيسابور ومَرْو والعراق والحجاز»[٢].

وقال الخَشَّاب: «كان مَرْضِياً عند الخاص والعام، والموافق والمخالف والسلطان والرعية، في بلده وفي سائر بلاد المسلمين، ومضى إلى الله كذلك وحبب تصانيفه إلى الناس وبيعت بأغلى الأثمان»[٣].

ومن أقوال أبو عبد الرحمن السُّلميّ: «الذكر أتم من الفكر لأن الحق يوصف بالذكر ولا يوصف بالفكر»[٤].

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢٤٩)، طبقات الشافعية (٤/ ١٤٣).
(٢) سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢٤٩).
(٣) سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢٤٨).
(٤) سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢٥٠).

وقال: «أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة وترك الأهواء والبدع وتعظيم حرمات المشايخ ورؤية أعذار الخلق والدوام على الأوراد»[١].

توفي أبو عبد الرحمن بنيسابور يوم الأحد ثالث شعبان سنة اثنتي عشرة وأربع مئة، وقيل في رجب وكانت جنازته مشهورة[٢].

هذا العالم الجليل الذي أثرى بتصانيفه المكتبة الإسلامية من الذي دأب على صنعة وتأديبه؟ إنها الأم. فقد وَهب الله للسّلميّ إلى جانب الأب العالم الزاهد أمّا ناصحة عالمة أنفقت على ولدها الكثير من الأموال التي ورثتها عند أبيها قال السُّلَمِيّ: «لما توفي جدي أبو عمرو خلَّف ثلاثة أسهم في قرية قيمتها ثلاثة آلاف دينار، وكانوا يتوارثون ذلك عن جده أحمد أحمد بن يوسف السُّلَمِيّ، وكذلك خلَّف أيضاً ضَياعاً ومتاعاً ولم يكن له وارث غير والدتي. وكان على التركات رجلٌ مُتسلط فكان من صنع الله أنه لم يأخذ من ذلك شيئاً وسلَّم إليّ الكل، فلما تهيأ أبو القاسم النَّصرآبادي للحج استأذنت أمّي في الحج فبِعت سهماً بألف دينار وخرجت سنة ستة وستين وثلاثمائة فقالت أمي: «توجهت إلى بيت الله فلا يكتبن عليك حافظاك شيئاً تستحي منه غداً»[٣].

(١) سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢٤٩).
(٢) طبقات الشافعية (٤/ ١٤٤)، وسير أعلام النبلاء (١٧/ ٢٥٢).
(٣) تاريخ بغداد (٢/ ٢٤٨)، سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢٤٧).

فتأملي يا أختاه مقولة تلك الأم الناصحة العالمة التي سخَّرت مالها وجهدها لصناعة عالم رباني عابد زاهد، ملأت شهرته الأجواء وأحبه الناس في كل مكان في عصره ـ كما قال الخَشَّاب ـ فهل تجتهدين أنت مع أولادك ليخرج من بين يديك عالماً فيكون هو وعلمه وعمله في ميزان حسناتك، وعليك بملازمة النصح والإرشاد له بمثل هذه الكلمات الواعية التي سطَّرها لنا العلماء وسطَّرها التاريخ في صفحاته لتلك الأم الصالحة وصدق من قال: [الكامل]

الأم مدرسة إذا أعددتها
أعددت شعباً طيب الأعراق
الأم روض إن تعهده الحيا
بالري أورق أيما إيراقِ
الأم أستاذ الأساتذة الأُلِي
شغلتْ مآثرُهم مدى الآفاق

١٥ ـ عبد القادر الفاسي الحنبلي(*)

هو عبد القادر بن عبد اللطيف الحسيني الفاسي الأصل المكي الحنبلي.

ولد في السادس عشر من رمضان سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة بمكة، ومات أبوه وهو ابن إحدى عشر سنة، وأمه مستولدة لأبيه حبشية اسمها تفاحة، وقد حفظ هذا العالم القرآن في صغره وحفظ جانباً من المحرر لابن عبد الهادي وجميع الشاطبية والكافية لابن الحاجب، ومختصر الأصلي والتلخيص، وسمع على أبي الفتح المراغي صحيح البخاري وبعض سنن النسائي وجميع العلل التي بآخر الترمذي.

وختم مسند عَبْد بن حميد وغير ذلك وأجاز له خلق منهم أبوه وزينب ابنه اليافعي وسارة ابنة جُماعة وابن الفُرات والزركشي.

وهكذا ظهر دور المرأة المسلمة في صناعة ذلك العالم فقد تربى يتيماً ولم يترك أبوه له شيئاً.

(*) التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة (٢/ ١٩٣).

كما تلقى العلم وتتلمذ على يد عالمتين هما زينب ابنة اليافعي وسارة ابنة جُماعة.

وهذا تصنع المرأة المسلمة العلماء وتنشر العلم وتعلمه للرجال والنساء.

وقد توفي الإمام عبد القادر يوم الخميس ليلة النصف من شعبان سنة خمس وتسعين وثمانمائة ودفن بالبقيع عند قبر أمه[١].

(١) التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة (٢/ ١٩٣).

١٦ ـ عبد الرحمن بن عمر الحبيشي(*)

هو العلامة الصالح الفقيه وجيه الدين عبد الرحمن بن عمر الحبيشي من أهل الحُرف(١) في مخلاف(٢) من وصاب الأعلى(٣).

كان دوحة علم وذكاء أصلها ثابت وفرعها في السماء، كَسَتْهُ المعارف جلابيبها ونال من الفضل والعلم الكثير وهو أحد مشاهير العلماء في اليمن.

اشتغل في صباه بالشعر واللغة واشتهر بالفصاحة والبلاغة فكان يُنشىء الشعر العجيب وهو حدث السن، ثم اشتغل بالفقه فقرأ على جماعة من الشيوخ منهم الفقيه عفيف الدين عبد الله بن

(*) طبقات صلحاء اليمن لعبد الوهاب السكسكي اليمني (١/ ٢٧ ـ ٢٩).

(١) الحُرْف بالضم ثم السكون والوفاء وهو رستاق في نواحي ـ الأنبار، والحُرْف أيضاً آراه سود مرتفعات في بني سليم [معجم البلدان (٢/ ٢٤٣)].

(٢) مِخلاف: هو الكورة أو الإقليم.

(٣) وصاب: اسم جبل يُحاذي زبيد ظاهراً وفيه عدة قرى وحصون في اليمن [معجم البلدان (٥/ ٣٧٨)].

محمد بن أسعد، والفقيه تقي الدين عمر بن عبد الله بن صالح، وفي الحديث على الإمام بُرهان الدين إبراهيم بن عمر العلوي. وقد درّس في المدرسة المؤيدية في مدينة «تَعِزَّ»[١] فأقام بها أياماً ثم تركها ورحل إلى بلده فأقام بها يدرس ويُفتى ثم تولى القضاء فكان ﷺ إماماً محققاً للفنون كلها كالتفسير والحديث والنحو واللغة والأصول والفروع وسائر العلوم. وكان صواماً قواماً ورعاً مجتهداً ألف كتباً كثيرة حسنة منها كتاب (بُلَغَة الأديب إلى معرفة الغريب) ومنها كتاب (الاعتبار لذوي الأبصار) ومنها كتاب (الجدل بين اللبن والعسل) ومنها كتاب (المعتقد لذوي الألباب) (والمعتمد في الآداب) وهو نظم قدر ألف وأربعمائة بيت تقريباً ومنها كتاب (زهر البساتين في الدعاء على عدو الدين) ومنها كتاب (النظم والتبيان) وقد نَظَم به كتاب التنبيه في الفقه ولم يكمله، وقيل أكمله. وله غير ذلك من الخطب والآداب وله مناقب وفضائل وشعر رائع، وقد توفي ﷺ ليلة السبت الثامن من شهر جمادى الآخر سنة ثمانين وسبعمائة ﷺ تعالى.

وقد ورد في ترجمة هذا العلامة أنه نشأ يتيماً في حجر أمه[٢].

وقد قامت تلك الأم المسلمة بتوجيهه وتعليمه فكانت من

---

(١) «تَعِزَّ» بالفتح ثم الكسر والزاي المشددة قلعة عظيمة من قلاع اليمن المشهورة [معجم البلدان ٢/ ٣٤)].

(٢) طبقات صلحاء اليمن (١/ ٢٧).

النساء اللاتي لم يذكرهن التاريخ بأسمائهن، ولكنها ذُكرت بالفضل في تربية أولادها تربية صالحة تجعل منهم علماء ربانيين يملأون أرجاء الدنيا بالعلم النافع.

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ﴾ [الأعراف: ٥٨].

فالأم الصالحة كالأرض الطيبة التي ينمو فيها النبات الصالح الذي ينفع الله به عباده، وكذلك الطفل اليتيم حين تربيه أمه فهو كالنبات أو الزهرة التي تفوح بيسيرة تلك الأم الصالحة التي كانت من النساء اللاتي صنعن علماء.